الجزء السابع سورة الأنعام

سُورَةُ الأَنعَام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ
وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

١٢٨

سورة الأنعام

معانى الكلمات :

بربهم يعدلون : يسوون به غيره فى العبادة.
قضى أجلاً:كتب وقدر زماناً معينا للموت.
تمترون : تشكون فى البعث . **قرن** : أمة من الناس . **مدراراً** : غزيراً كثير الصب .

قرطاس : كتاب من ورق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله عز وجل هو المستحق للحمد والثناء لذاته ، ثناءً عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بوحدانيته .

٢ ـ أن نوقن بأن الآجال قدرت سلفا وقضيت فى موتها وبعثها فى أم الكتاب .

٣ ـ أن نستشعر مراقبة الله لنا فى أقوالنا وأعمالنا فإنه مطلع علينا .

٤ ـ أن نتأمل ونعتبر من قصص الأمم السابقة التى أهلكتها الذنوب .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات فى سورة الأنعام بعرض الحقيقة الكبرى للعقيدة ، فتبدأ بالحمد لله ثناءً عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية فى الخلق والإنشاء ، ثم فى أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها فى الأفلاك ، وتعجب الآيات من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة تنطق بقدرة الله العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون . بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به .

واستكمالاً لتقرير ألوهية الله فى الكون والحياة الإنسانية سواء ، يذكر مقتضيات هذه الألوهية فهو منشئ الخلق من طين ، وهو الذى قضى الآجال ، ولكن المخاطبين يشكون فى هذا ولا يستيقنون ، وهو المتفرد بالألوهية ؛ لذا فكل الناس والمخلوقات من أرض وسماء خاضع لناموسه على غير إرادة ولا اختيار ، ووجود السموات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام

الواضح ، ونشأة الحياة ـ وحياة الإنسان فى قمتها ـ وسيرها فى هذا الخط الذى سارت فيه . كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله .

والوحدانية هى القضية التى تستهدف السورة كلها ـ بل القرآن كله ـ تقريرها ـ وليست هى قضية وجود الله . فلقد كانت المشكلة دائماً فى تاريخ البشرية هى مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقة ؛ ولم تكن هى مشكلة عدم الإيمان بوجود الله !

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية فى ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكراً قبيحاً ، حتى فى حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة فى الجولة الأولى ، يكسبها فى أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين .

يقول صاحب الظلال : « إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادًا وإصرارًا ، فليس الذى ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هى التى يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها ، ليس هذا هو الذى ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة فى الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر » .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمداً ومقصوداً ـ مع توافر الأدلة وتواتر الآيات ووضوح الحقائق ، فإن هذا التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التى تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد .

وفى موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ـ وقد كانوا يعرفون بعضها فى دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب فى رحلة الشتاء للجنوب وفى رحلة الصيف للشمال ، فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة ، وقد مكنهم الله فى الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يُعط مثله للمخاطبين من قريش فى الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ فى حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق ؛ ثم عصوا ربهم فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ؛ فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً ! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض

بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض فى دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة فى حركتها كأن لم يكن هناك أحياء .

ثم يمضى السياق يصور طبيعة العناد ، التى ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجًا عجيبًا من النفوس البشرية ، ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان فى كل عصر وفى كل بيئة وفى كل جيل ، نموذج النفس المكابرة ؛ التى يخرق الحق عينها ولا تراه !

والذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً ! ولو أن الله ـ سبحانه ـ نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحى الذى لا يرونه ؛ ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم ـ لا سماعاً عن غيرهم ولا مجرد رؤية بعيونهم ـ ما سلموا بهذا الذى يرونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ويستمرون فى التعنت والمماحكة والمعاندة فيقترحون أن ينزل الله ملكاً . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة ـ حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم ـ أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار ، ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكاً ، لقضى الأمر ، وتم التدمير ، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله فى عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟!

هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ، وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله فى تنزيل الملائكة ، وهم بهذا الجهل الذى يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ، ويتعنتون فى طلب الدليل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله سبحانه وتعالى ـ مستحق الحمد لذاته ، ويجب أن نوجه الحمد والشكر لله دائماً على نعمه العظيمة التى لا تُحصى .

٢ ـ كل إنسان أجله محدد لا يتقدم ولا يتأخر ، ويوم البعث محدد فى علم الغيب ، لا يعلمه إلا هو .

٣ ـ الله تعالى مطلع علينا فى سرنا وجهرنا ، فيجب أن نراقبه فى جميع أقوالنا وأعمالنا ؛ لأنه مطلع علينا ويحاسبنا .

٤ ـ يجب أن نأخذ العبرة والعظة من هلاك الأمم السابقة التى أهلكها الله بذنوبها .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا
يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ
كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ
وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
١٢٩

معانى الكلمات :

حاق : أحاط وأنزل . **خسروا أنفسهم** : أهلكوها وظلموها بالكفر . **ما سكن** : ما استقر وحلّ . **ولياً** : رباً معبوداً وناصراً معيناً . **فاطر** : مبدع ومخترع .

هو يطعم : يرزق عباده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الله تعالى للرسل من البشر .

٢ ـ أن نستشعر قدرة الله تعالى وملكيته لكل شىء ، وتصرفه فى ملكه ورحمته الواسعة بعباده .

٣ ـ أن ندرك سنة الله فى الأمم السابقة التى استهزأت بالرسل فأهلكهم الله بكذبهم وذنوبهم

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق اقتراحات المماحكة ممن لا يريدون أن يطبقوا شرع الله ويؤمنوا برسوله ﷺ فيقترحون أن ينزل الله ـ سبحانه ـ ملكا على رسوله ﷺ يصدقه فى دعواه ، ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنسانى ، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله ؛ ولو شاء الله أن يرسل ملكاً يصدق رسوله ، لتبدى للناس فى صورة رجل ـ لا فى صورته الملائكية ـ وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى ، وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ورسول الله ﷺ يقول لهم : أنا محمد الذى تعرفونه أرسلنى الله إليكم لأنذركم وأبشركم . فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك فى صورة رجل لا يعرفونه ، فلو أرسل الله ملكاً لجعله رجلاً ، وللبس عليهم الحقيقة التى يلبسونها ؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين !

ثم بين ما وقع للمستهزئين بالرسل ، ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير فى الأرض لرؤية هذه المصارع ، الناطقة بسنة الله فى المستهزئين المكذبين .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه اللفتة بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً ؛ وبعد بيان ما فى اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما فى عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة الله وحلم ـ لترمى إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ، وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه فى أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل ؛ وتأسيه كذلك بأن هذا الإعراض ، وهذا التكذيب ليس بدعاً فى تاريخ الدعوة إلى الحق ، فقد لقى مثله الرسل قبله؛ وقد لقى المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل فى نهاية المطاف.

الثانى : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين وتذكيرهم بهذه المصارع التى تنتظرهم إن هم لجوا فى الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وقد أخذ الله ـ من قبلهم ـ قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً فى الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم فى مطلع هذه الآيات ؛ التى ترج القلوب رجاً بهذه اللفتات الواقعية المخيفة .

ويأتى التوجيه القرآنى لهؤلاء بالسير فى الأرض ، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد :

يقول الإمام محمد أبى زهرة : « **الفائدة الأولى** : أن يعرفوا أن هذه الحياة التى يعيشون فيها ليس لها دوام ... **والفائدة الثانية** : أن أولئك الأقوام قد مكن لهم فى الأرض بما لم يمكن لهم ، وما منعهم ملكهم الواسع ... من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء **والفائدة الثالثة** : أن الله عذبهم بالإهلاك فى الدنيا بسبب طغيانهم » .

ثم ينتقل السياق موجهًا الرسول ﷺ لمواجهة المشركين الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله فى تصريف حياتهم ـ مواجهتهم بالسؤال عن الملكية ـ بعد الخلق ـ لكل ما فى السموات والأرض ، مستقصياً بهذا السؤال حدود الملكية فى المكان : مع تقرير الحقيقة التى لم يكونوا هم يجادلون فيها ؛ والتى حكى القرآن فى مواضع أخرى إقرارهم الكامل بها : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾ .

ويلحق بهذا التقرير أنه سبحانه : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ . كتبها بإرادته ومشيئته ؛ لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتضٍ إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة ـ وهى ـ الرحمة ـ قاعدة قضائه فى خلقه وقاعدة معاملته لهم فى الدنيا والآخرة ، ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ؛ وتسعهم جميعاً ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم ، وهى تتجلى فى كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات .

وبعد أن تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك للأماكن والخلائق وملكية السموات والأرض وما فيها وعلمه سبحانه وسمعه المحيطين بها ، يجىء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله ، ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذى لا يجتمع مع الإسلام ، وتذكر من صفات الله سبحانه : أنه فاطر السموات والأرض ، وأنه الرازق المطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر ، وتذكر العذاب المخوف المرهوب .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه القضية اتخاذ الله وحده وليًا بكل معانى كلمة (الولى) ، أى اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة فى الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده واتخاذه وحده ناصراً يُستنصر به ويُعتمد عليه ، ويتوجه إليه فى الملمات ، إن هذه القضية هى قضية العقيدة فى صميمها . فإما إخلاص الولاء لله ـ بهذه المعانى كلها ـ فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه فى أى منها ، فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد وهو الإسلام !

لذا تقرر الآيات فى حقيقة واضحة تستنكر على المشركين اتخاذ غير الله إلهًا ، وهو فاطر السموات والأرض ، ورازق لمن فيهما وهو يُطعِم ولا يُطعمْ ؛ لذا أمر أن يقول لهم : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا يتخذ غير الله ولياً . فاتخاذ غير الله ولياً بأى معنى ـ هو الشرك ولن يكون الشرك إسلامًا » .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار فى وجه المشركين الذين يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ، وأمر كذلك أن يقذف قلوبهم بالرعب والترويع ؛ فى الوقت الذى يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ، ولخوفه هو من عذاب ربه ، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد ، ثم إنه لماذا يتخذ غير الله ولياً ، ويعرض نفسه للشرك الذى نُهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذى أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب ؟ ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر فى هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له فى الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة فى عالم الأسباب ، وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة فى المنهج والعطاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنة الله فى الدعوات أن يكذب الرسل ودعاة الحق ويستهزأ بهم ، ولكن العاقبة الحسنى للحق وأهله وعاقبة السوء لأهل الباطل والمشركين المستهزئين .

٢ ـ ينبغى ألا نوالى غير الله فهو فاطر السموات والأرض ، ومالك لكل شىء ، ومتصرف بقدرته وقادر وقاهر فوق كل شىء فلا إله غيره ولا رب سواه .

٣ ـ وجوب اللجوء إلى الله تعالى دون غيره من سائر خلقه إذ لا يكشف الضر إلا هو .

٤ ـ لا يرفع الفقر أو المرض ولا يصرفهما إلا الله ـ تعالى ـ وكل صحة أو نعمة أو خير ، فهى من الله ـ تعالى ـ ولا أحد يستطيع ردها .

٥ ـ استشعار رحمة الله فى كل شىء يستجيش فى حس المؤمن الحياء من الله ، فإن الطمع فى المغفرة والرحمة لا يُجرِّئ على المعصية ، إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم .

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

معانى الكلمات :

من بلغ : من بلغه القرآن إلى قيام الساعة .

فتنتهم : معذرتهم أو عاقبة شركهم .

ما كانوا يفترون : يكذبون . **ضل عنهم** : زال وغاب عنهم . **أكنة** : أغطية كثيرة .

وقراً : ثقلاً فى السمع وصماً . **أساطير الأولين** : أكاذيب السابقين . **ينأون عنه** : يتباعدون عن القرآن بأنفسهم . **وقفوا على النار** : حبسوا على ظهرها أو عرفوها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن شهادة الله تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ بصدق رسالته هى أكبر شهادة .

٢ ـ بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم على النبى ﷺ .

٣ ـ بيان مصير المشركين الذين كذبوا بآيات الله وافتروا على الله الكذب .

المحتوى التربوى :

تتابع الآيات لتصف مواجهة النبى ﷺ للمشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ، ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذى هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! ورسول الله ﷺ يواجه هؤلاء المشركين، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم ، وبين توحيده وتوحيدهم، وليقرر أنه لا موضع بلا اتفاق بينه وبينهم إلا أن يتخلصوا هم من بين من دينهم ويدخلوا فى دينه ، وأنه لا وجه للمصالحة فى هذا الأمر ؛ لأنه يفترق معهم فى أول الطريق .

ويبدأ النبى ﷺ معهم سؤال الإشهاد العلنى المفتوح : أىّ شىء فى هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أى شاهد تعلو شهادته كل شهادة ؟ وكما يؤمر رسول الله ﷺ بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب ، ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم ولا جواب غيره فى حقيقة الأمر والواقع . فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه ـ سبحانه ـ هو الشهيد بينه وبينهم فى القضية .

فإذا تقرر المبدأ : مبدأ تحكيم الله سبحانه فى القضية ، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه ، تضمنها هذا القرآن ، الذى أوحاه إليه لينذرهم به ، وينذر به كل من يبلغه فى حياته ﷺ أو من بعد ، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله فى هذه القضية الأساسية ؛ التى تقوم عليها الدنيا والآخرة ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنسانى ضمناً .

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله ـ سبحانه ـ متضمنة فى هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة فى صورة التحدى والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة فى أساسها عن شهادة الله سبحانه ، وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم .

ثم ينتقل السياق ليؤكد أن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون ـ من ثم ـ ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التى تدين بالعقيدة التى جاء بها ؛ وبالأخلاق التى تنبثق منها ؛ وبالنظام الذى يقوم عليها ، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين !

إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . ويعرفون أن الجاهلية التى صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين ، أو يبقى عليها ، وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ، ويستعلى هذا الدين ، ويكون الدين كله لله ، أى يكون السلطان فى الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله فى الأرض كلها ، وبذلك وحده يكون الدين كله لله .

ويقرر الله سبحانه وتعالى الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة للشرك والمشركين الذين يفترون على الله الكذب ، ويكذبون بآياته عز وجل ـ بأن عاقبة أمرهم الخسار والبوار ، ويوم القيامة يسألهم عما أشركوا معه من شركاء فتتعرى الفطرة من الركام الذى ران عليها فى الدنيا فيشعرون أنه لم يكن شركا ولم يكن شركاء ، لم يكن لهذا كله من وجود لا فى حقيقة ولا واقع وعندها « يفتنون » فيذهب الخبث ، ويسقط الركام : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ إنها الحقيقة التى تجلت عنها الفتنة ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعرى من الباطل ، فاليوم للجزاء لا للعمل .

لذلك يقرر سبحانه ، معجباً رسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله فى الحقيقة ، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء .

ويمضى السياق يصور حال فريق من المشركين ؛ويقرر مصيرهم فى مشهد من مشاهد القيامة، يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلى الإدراك ، مطموسى الفطرة ، معاندين مكابرين يجادلون رسول الله ﷺ ، ويدعون على هذا القرآن أنه أساطير الأولين ، وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضاً .

يقول الإمام محمد أبى زهرة : « وهنا إشارتان :

أولاهما : أنهم ما جاؤوا يطلبون الحق ، ولكن جاؤوا يجادلون ، تقال للتسلية ، ومنها ما يكون غير صادق ، والجدل فى أكثر أحواله تمويه ، وليس طلب حق .

والثانية : أن الذين كفروا يقولون ما هى إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم ، فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة » .

يصور حالهم المقيت هكذا فى الدنيا فى صفحة، وفى الصفحة الأخرى يرسم مشهداً كئيباً لهم؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهى تواجههم بهول المصير الرعيب ، وهم يتهافتون متخاذلين ؛ ويتهاوون متحسرين ؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذى انتهى بهم إلى هذا المصير ، فيردون عن هذا التمنى بالتصغير والتحقير .

يقول صاحب الأساس : « إن أمر الله لرسوله ﷺ أن يتذكر موقف المشركين يوم القيامة ، وبراءتهم من كفرهم ، وأمره بالاعتبار بذلك فيه تعزية لرسول الله ﷺ ، وتسلية عن موقف الكافرين منه ، وفى ذلك أيضاً عرض لنوع من أنواع القهر الإلهى ، ولفت نظر إلى أن الدنيا وحدها ليست إلا وجهًا من أوجه التدبير الإلهى ، ويظهر فيها بعض أنواع القهر ، ولكن الآخرة هى الوجه الآخر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شهادة الله لنبيه ﷺ بصدق الرسالة ، أكبر شهادة على صدقها ، وصحتها ورداً على المشركين الذى يفترون على الله ونبيه الكذب وهم يعلمون .

٢ ـ القرآن الكريم كتاب نذارة وبشارة أوحاه الله لنبيه ﷺ ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

٣ ـ أقبح أفعال المشركين ومن نسج على منوالهم من لا ينتفعون بالحق والقرآن ، ولا يتركون أحداً ينتفع بذلك .

٤ ـ من الزاد للصبر على الشدائد والابتلاء النظر فى عاقبة السابقين الظالمين الذين طغوا فى الأرض الذين ينهون عن اتباع الحق ، وينأون عن اتباعه ، فهؤلاء كما قال تعالى ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

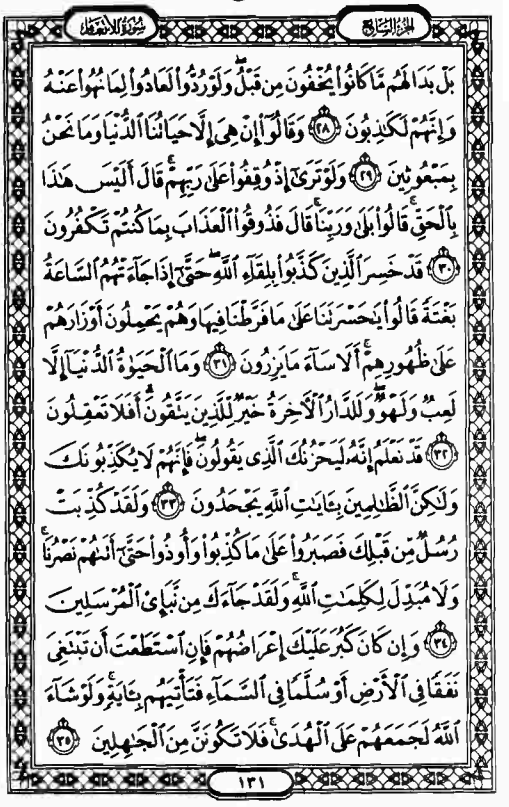
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ
﴿٣٥﴾
١٣١

معانى الكلمات :

وقفوا على ربهم : حبسوا على حكم الله ـ تعالى ـ للسؤال . **بغتة** : فجأة من غير شعور.

فرطنا فيها: قصرنا وضيعنا فى الحياة الدنيا .

أوزارهم : ذنوبهم وخطاياهم . **لكلمات الله** : آيات وعده بنصر رسله . **كبر عليك** : صعب وعظم عليك . **نفقاً فى الأرض** : طريقاً نافذاً فى الأرض إلى ما تحتها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على صفات الكافرين ، ومبعث تكذيبهم وحقدهم على الدعوة .

٢ ـ بيان سنة الله فى الأمم السابقة .

٣ ـ أن نعرف مكانة الصبر وأهميته للدعاة وتدرك سنة الله فى الدعوات .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن طبيعة المشركين ، وإصرارهم على باطلهم ، فهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء . وترسم الآيات صورتهم فى الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ السؤال الذى يزلزل ويذيب ، فيجيبون إجابة المهين الذليل : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفى النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة فى ميزان الله الصحيح .

يقول صاحب الظلال : « فالحياة ـ فى التصور الإسلامى ـ ليست هى هذه الفترة القصيرة التى تمثل عمر الفرد ؛ وليست هذه الفترة المحدودة التى تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هى هذه الفترة المشهودة التى تمثل عمر البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، إن الحياة ـ فى التصور الإسلامى ـ تمتد طولاً فى الزمان وتمتد عرضاً فى الآفاق ، وتمتد عمقاً فى العوالم ، وتمتد تنوعاً فى الحقيقة ، عن تلك الفترة التى يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة فى التصور الإسلامى تمتد فى الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة ، فترة الحياة الدنيا، وفترة الحياة الأخرى التى لا يعلم مداها إلا الله ، والتى تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد فى المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التى يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السموات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التى عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد فى العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنسانى فى صورة لا يعلمها إلا الله . ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ » .

قال الإمام الرازى : « اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم فى الدنيا ، وتحصيل لذاتها ، فذكر الله تعالى ـ هذه الآية تنبيها على خساستها وركاكتها ، واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها ؛ لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها » .

ثم يتجه السياق بعد ما بين حقيقة ووزن الحياة الدنيا والدار الآخرة فى ميزان الله ـ إلى رسول الله ﷺ يطيب الله سبحانه، خاطره فى أوله، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه ـ عز وجل ـ بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التى لا تتبدل .

حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبى ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى فى شأن هذه الدعوة ، إنها تجرى بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان ، إن الله هو الذى يتصرف فى الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضى وفق هذا الأمر ، ولا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً ، حتى ولو كان هو النبى الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين ـ ولا الناس عامة ـ فى منهج الدعوة ، ولا فى اقتراح براهين وآيات معينة عليه، والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

يقول صاحب الظلال تعليقاً على قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ « إنّ موكب الدعوة إلى الله موغل فى القدم، ضارب فى شعاب الزمن ، ماض فى الطريق اللاحب ، ماض فى الخط الواصب، مستقيم الخطا ، ثابت الأقدام ، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين

والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء ، والموكب فى طريقه لا ينحنى ولا ينثنى ، ولا ينكص ولا يحيد ، والعاقبة هى العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق ، إن نصر الله دائماً فى نهاية الطريق » .

ونعود إلى السياق فنجد أنه يبلغ الجد الصارم إلى منتهاه ليواجه ما عساه يعتمل فى نفس رسول الله ﷺ ، من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبون من آيات لعلهم يهتدون ، ولكن فى صدد الدعوة يحسم الله فى طبيعة الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، فيقول عز وجل لرسوله الكريم الصابر المحتسب .

تلك سنتنا ـ يا محمد ـ فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب فى إتيانهم بآية ، إذن فإن استطعت فابتغ لك نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ، فَأْتِهم بآية! إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، فليس الذى ينقص هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرتهم من الأصل على ألا تعرف سوى الهدى ـ كالملائكة ـ وإما بتوجيه قلوبهم ، وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه، وإما بإظهار خارقة تلوى أعناقهم جميعاً ، وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها .

ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل فى نهاية المطاف . فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الكافرون نفوسهم غير مستعدة للإيمان ، فلو عادوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد القيامة فلن يؤمنوا .

٢ ـ فى يوم القيامة لا يستطيع أحد إنكار الحق ، وإذا حاول الإنكار ؛ شهدت أعضاؤه بالحق من غير إرادته .

٣ ـ الكافرون لم يكذبوا الرسول ﷺ ؛ لأنه كان معروفاً بينهم بالصادق الأمين ، وإنما كذبوا بما جاء به ، لما روى سفيان الثورى عن على قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ :إنا لا نكذبك ، ولكن نكذّب ما جئت به ، فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين] .

٤ ـ الساعة لا تأتى إلا بغتة ، ولا ينافى ذلك ظهور علاماتها ، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره .

٥ ـ الصبر طريق النصر وعاقبته ، والابتلاء سنة الله فى الدعوات ، وما على الدعاة إلى الله سوى المضى قُدُماً بالدعوة برغم كيد أعدائها حتى يأتى النصر .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

معانى الكلمات :

أمم أمثالكم: أمم تشبهكم فى خلق الله لها . **ما فرطنا** : ما أغفلنا وما تركنا . **أرأيتكم** : أخبرونى عن عجيب أمركم . **الباساء والضراء** : البؤس والفقر . **يتضرعون** : يتذللون ويتخشعون . **جاءهم بأسنا** : أتاهم عذابنا . **أخذناهم بغتة** : أنزلنا بهم العذاب فجأة . **مبلسون** : مكتئبون أو آيسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية ؟

١ ـ أن نعرف قيمة الإيمان بالله ورسوله ولقائه والفرق بين المؤمن والكافر فى الاستجابة لله .

٢ـ أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى الله .

٣ ـ أن نعرف قيمة التضرع إلى الله ، والتذلل له فى رفع البلاء .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن صنفين من الناس يواجهون الحق الذى جاء به الرسول ﷺ من عند الله: فريق حىّ ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة ، وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقى معها إلى الحد الذى يكفى أن تسمعه فتستجيب له ، وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذى ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله ـ فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيه مصداقه . فاستجابت إليه حتماً ـ إنما الذى ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان ، إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم فى هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتاً بالحياة حتى يرجعوا إليه فى الآخرة .

ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما فى هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذى فى أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانباً من دقة التدبير

الإلهى وإحاطته بالأحياء جميعا ؛ يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً . وينتهى بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجرى بها مشيئة الله طليقة .

يقول صاحب الظلال : « لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التى صاحبت الرسالات السابقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله فى أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجىء الخارقة ، وإهلاكهم فى الدنيا ، ولا يدركون حكمة الله فى عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها ـ كما وقع من الأقوام قبلهم ـ فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذى لا يعلمون جرائره ! » .

ويقرر الله ـ عز وجل ـ فى الآيات التالية ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته ، وما يدلان عليه من فطرة الناس فى حالات الهدى وحالات الضلال ، وهو إعادة لتقرير الحقيقة التى مضت فى هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون ، وراء ذلك كله مشيئة الله التى قضت أن يكون الإنسان على هذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، وكذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم بمشيئته تلك ، التى تعين من يجاهد ، وتضل من يعاند ، ولا تظلم أحداً من العباد .

يقول صاحب الظلال : « إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتى فى موعده الذى يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد ـ حتى ولا الرسول ، والمشقة فى هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة فى أول الأمر والحرب والأذى ـ اللذين يعلنان على الدعاة ثم من الرغبة البشرية فى نفس الداعية فى هداية الناس إلى الحق الذى تذوقه وعرف طعمه والحماسة للحق والرغبة فى استعلائه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى . فكلها من دواعى مشقة الطريق ! » .

ثم يواجه السياق القرآنى فطرة المشركين ببأس الله ، بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله ، فيواجه الفطرة بتصور الهول عذاب الله فى الدنيا عذاب الهلاك والدمار ، أو مجىء الساعة على غير انتظار ويسألهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيراً عن الصدق فى فطرتهم : ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق المطابق لفطرتهم، ولو لم تنطق به ألسنتهم ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ .

ثم تأتى المواجهة الحاسمة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخى ، نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ؛ فإذا نسوا ما ذكروا به ، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة ، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذى لا يرجى معه صلاح ، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد

الذى لا تصلح معه للبقاء . فحقت عليهم كلمة الله ، ونزل بساحتهم الدمار الذى لا تنجو منه ديار ، وفى هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر فى أمم شتى ، أمم جاءتهم رسلهم ، فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . فى أموالهم وفى أنفسهم فى أحوالهم وأوضاعهم . البأساء والضراء ، التى لا تبلغ أن تكون « عذاب الله » الذى تحدثت عنه الآيات التالية وهو عذاب التدمير والاستئصال .

ويقول صاحب الظلال : « لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ، وينقبوا فى ضمائرهم وفى واقعهم ، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبوب الرحمة ، ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا ، لم يلجؤوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ماهم فيه من الضلال والعناد » .

ويقول الإمام محمد أبى زهرة عن المانع من الضراعة أمران :

« **أحدهما** : قسوة القلوب ... والسبب فى أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ فى النفوس والطباع ، وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.... والضراعة رقة فى القلب ورأفة فى النفس ، وإحساس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسى ضارعا ولو كان جبانا ؛ إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسوة غلظة ، وقد يكون الجبان غليظا ؛ بل فى أكثر الأحوال هو كذلك .

الأمر الثانى : الذى يمنع الضراعة ـ تزيين الشيطان العمل للنفس ... والشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التى تزين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإيمان بالله ورسوله ولقائه حياة والكفربذلك موت ، فالمؤمن حى والكافر ميت .

٢ ـ طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ونصر الله للحق آت لا ريب فيه .

٣ ـ خلق الإنسان فيه الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، ليتحقق الابتلاء ، وينعقد الاختبار ، ليستوفى الإنسان الجزاء بما كسبت يداه ، ولا يظلم ربُكَ أحداً .

٤ ـ الهداية والضلال بمشيئة الله تعالى فمن شاء هداه ، ومن شاء أضله ، فمن أراد الهداية فليطلبها من الله عز وجل بصدق ، ومن رغب عنها فلن ينالها .

٥ ـ إنما يكون الابتلاء بالسراء والضراء ليعود الإنسان إلى ربه يتضرع إليه ، ويتذلل له ، ويدعو الله بقلب مخلص، فيرفع الله البلاء ويفتح أبواب رحمته .

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾
١٣٣

معانى الكلمات :

دابر القوم : آخرهم . **أرأيتم** : أخبرونى .

نصرف الآيات : نكررها على طرق مختلفة.

هم يصدفون : يعرضون عنها ويعدلون .

بغتة : فجأة أو ليلاً . **جهرة** : معاينة أو نهاراً . **خزائن الله** : مرزوقاته أو مقدوراته.

بالغداة والعشى : أول النهار وآخره أى دومًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف ونتدبر مصير الأمم التى كذبت بالرسل،ونأخذ منها العبرة والعظة.

٢ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن القوم الظالمين ، فلا راد لقضاء الله رب العالمين .

٣ ـ أن ندرك سنة الله فى نصرة الحق وأهله ، ونعمل بهذه السنن إذا أردنا التمكين .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق تصوير مصير الأمم التى كذبت بالرسل ، والتى يُقص الله من أنبائها هنا، فإنهم لما نسوا ما ذكروا به ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أنهم مهلكون ، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا ، فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شىء للاستدراج بعد الابتلاء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا فى المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم فى لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هى عادة المستغرقين فى اللهو والمتاع ،وتبع ذلك فساد النظم ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ عندئذ جاء موعد السنة التى لا تتبدل ، فكان أخذهم على غرة ؛ وهم فى سهوة وسكرة ، فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء فى النجاة عاجزون عن التفكير فى أى اتجاه ، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم .

يقول صاحب الظلال : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تعقب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهى والكيد المتين ، وهل يحمد الله على نعمة ، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين ، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير؟

بعد ذلك يوقف السياق القرآنى المشركين بالله ، أمام بأس الله ، فى ذوات أنفسهم ، فى أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلهاً غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم ، وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقيع جديد ، ليس على الله ببعيد ، يريهم فيه مصارعهم ـ وهم الظالمون : أى المشركون ـ وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون .

وبعد عرض هذه المشاهد التى تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر .. يبين وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، ومبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير .

وتمضى الآيات فى مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، ويقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ، فالرسول الذى يقدمها للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم إنى ملك ، وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله، وعليه أن يلزمهم ، وأن يهش لهم ، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة .

يقول صاحب الأساس : تعليقًا على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ؛ أقول : لقد أكرم الله رسوله ﷺ بأن أطلعه على بعض الغيوب ، وقد يكرم الله ـ عز وجل ـ مسلماً بأن يلهمه حقاً ، أو يجرى على لسانه باستجابة دعاء فيسخر لهم ما يسخر ، ولكنّ ذلك ليس هو الأساس الذى يبنى عليه المسلم موقفه .

إن كثيرين من مسلمى عصرنا بسبب من رؤية كرامة لولى ، أو بسبب من إلهام حق لصالح يتابعون صاحب ذلك فى كل شىء ، وينسون تكليف الله لهم فى القيام بأمره ونصرة شريعته ، ووجوب التعاون مع المسلمين على الخير ، ووجوب كون المسلمين صفاً واحداً .

إن هذه الآية تصحح مفاهيم خاطئة كثيرة فى أمر النبوة وفى أمر الدخول فى الإسلام ، وفى أمر المتابعة عليه ، فليس رسول الله ملكاً ومن ثمّ يُتابَع ، وليس رسول الله ﷺ عالماً بالغيب ، وقد يعطيه الله ويعطى من تابعه ، وقد يكرمه الله بشىء من علم الغيب . ثم هو أكرم على الله من ملائكته ولكنّ صفته هى أنهّ رسول الله ﷺ .

ونعود مرة أخرى للسياق فيأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ أن يصبر نفسه مع فقراء المسلمين والضعفاء منهم ، والعبيد فلا يقوم حتى يقوموا ، وهو محمد بن عبد الله وهو بعد ذلك ـ رسول الله ﷺ وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة ، ويعاود السياق تصحيح المفاهيم فيجعل لهم مكانة عالية دونها مكانة سادة قريش الذين أبوا الإسلام ، ويحذر رسول الله ﷺ صاحبه أبا بكر أن يكون قد أغضب هؤلاء لما عاتبهم فى أمر أبى سفيان فيكون قد أغضب الله ـ فيذهب أبو بكر ﷺ يترضّى الأعبد « ليرضى الله : « يا أخوتاه أغضبتكم » ؟ فيقولون : « لا يا أخى ، يغفر الله لك » .

ولقد أراد الله عز وجل أن يرفع البشرية من هذا السفح الهابط الذى كانوا فيه فى جاهليتهم عندما قال الملأ من قريش : « يا محمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، جاء الرد الحاسم من الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

وقضى الله سبحانه فى هذه الدعوى بقضائه الفصل ورد دعواهم من أساسها وبقى فقراء الجيوب أغنياء القلوب فى مجلس رسول الله ﷺ وبقى ضعاف الجاه الأقوياء بالله فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه ، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذى قرره الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ، وقال قتادة : بغت القوم أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً فقط إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ؛ فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

٢ ـ سنة الله فى تدمير الباطل أن يقوم فى الأرض (حق) يتمثل فى (أمة) ، ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد ؛ فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ولا يكونون أهله ، وهم كسالى قاعدون .

٣ ـ المؤمنون المصدقون هم الذى ينتفعون بالقرآن وإنذاراته ، أما الكافرون المعرضون فلن يتأثروا بشىء منه .

٤ ـ تحذير الله ـ تعالى ـ للرسول ﷺ من طرد ضعاف المؤمنين وفقرائهم من مجلسه فيه تكريم للمؤمنين وإعلان لمبدأ المساواة الإسلامية : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ
أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا
تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾
۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ
فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

١٣٤

معانى الكلمات :

فتنا : ابتلينا . **كتب ربكم** : قضى وأوجب . **بجهالة** : بسفاهة . **يقص الحق** : يبينه ويوضحه . **خير الفاصلين** : أفضل من يحكم . **كتاب مبين** : اللوح المحفوظ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مراتب التفاضل بين البشر عند الله .

٢ ـ أن نعتقد أن رحمة الله غلبت غضبه ـ عز وجل ـ فلا نيأس من تجاوزه عن سيئات المذنبين .

٣ ـ أن نعرف فضل الشكر وأهميته ، وأثره على الشاكرين .

٤ ـ بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة لله تعالى .

المحتوى التربوى :

بعد أن قررت الآيات أن فقراء الجيوب أغنياء القلوب أحق بالرعاية والاهتمام والجلوس معهم من ضعاف الإيمان،وأن ضعاف الجاه الأقوياء ظلوا فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه ، عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون : كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيراً ماسبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه .

وكانت هذه هى الفتنة التى قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التى يطلع بها على البشرية . مشرقة الآفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى القمة السامقة . ويقرر الله ـ سبحانه ـ بعد هذه الفتنة أن الشاكرين هم المستحقون لإنعام الله بكل خير ، وأما الكافرون فلا يعطون ولا يزدادون لكفرهم النعم وعدم شكرهم لها .

ويمضى السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! أن يبدأهم بالسلام ، وأن

يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلاً فى مغفرته لمن عمل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح .

يقول صاحب الأساس : « بمناسبة قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ينقل ابن كثير ما يلى :

ـ روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لمّا قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إنّ رحمتى غلبت غضبى » أخرجاه فى الصحيحين .

ـ روى ابن مرَدَويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتاباً من تحت العرش : إنّ رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » .

فما أعظم رحمة الله وما أقبح من لم ينل من هذه الرحمة يوم القيامة ! وما أعقل من عمل للوصول إلى استحقاق رحمة الله الكاملة بسلوك طريق ذلك ، والتَّحقق بالصفات التى يعطى الله أصحابها رحمته .

ويقول صاحب الظلال : « يأمر الله رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه، وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعد وأصلحوا ـ إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح ، ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التى تجعل التوبة من الذنب ـ أيا كان ـ والإصلاح بعده ، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة » .

ويختم السياق هذه الجولة التى قدمت طبيعة الرسالة والرسول فى هذه النصاعة الواضحة بأن منهج الإسلام لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره ، حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين .

ويفاصل النبى ﷺ قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم ويقينه ممن هداه،ويأمره ربه ـ عز وجل ـ أن يواجه المشركين بأنه منهى من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أنداداً لله، وذلك أنه منهى عن اتباع أهوائهم ؛ وبيقين الواثق يعلن أنه على بينة من ربه ، فيعلن لهم حقيقة الرسالة ويفرق فرقانًا كاملًا بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ ويأمره ربه أن يجهر بأنه لا يملك هذا الذى يستعجلونه ؛ فالذى يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلهاً ، إنما هو رسول .

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومتروك لمشيئة الله ، ويخبرهم أن الله أعلم بالظالمين ، فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم .

وبمناسبة علم الله ـ سبحانه ـ بالظالمين ؛ واستطرادًا فى بيان حقيقة الألوهية ، يجلى هذه الحقيقة فى مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة ، مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ، ويرسل سهاماً بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية ، يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذى لا يندّ عنه شيء فى الزمان ولا فى المكان ، فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر ، فى جوف الأرض ، ولا فى طباق الجو ، من حى وميت ويابس ورطب » إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول ، جولة فى آماد الزمان وآفاق المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ـ والمعلوم والمجهول .. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال » .

وهذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم تكفى وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم ، كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع فى التعبير ذاته ، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على المستوى السامق : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ، آماد وآفاق وأغوار فى « المجهول » المطلق فى الزمان والمكان ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ليست العبرة فى الإسلام بالحسب ولا بالنسب ، ولا بالمال ، ولا بالجاه ، والسلطان ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح .

٢ ـ الشاكرون مستوجبون لزيادة النعم ، والكافرون مستوجبون لنقصانها وذهابها .

٣ ـ الله عز وجل يعفو عمن اقترف السيئات جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من مضار تائباً راجعاً إلى الله ، نادماً على ما فعل .

٤ ـ يقول النسفى بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وعندك أيها الإنسان مفاتح الغيب فمن آمن بغيبه أسبل الله السّتر على عيبه .

٥ ـ استأثر الله تعالى بعلم الغيب عنده ـ عز وجل ـ ولم يطلع عليه أحداً ولا الرسول ﷺ فينبغى ألا نجهد أنفسنا فى معرفته عن طريق إنس ولا جان ولا ملك ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ
أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
١٣٥

معانى الكلمات :

جرحتم بالنهار : ارتكبتم من الذنوب .

لا يفرطون : لا يقصرون . **تضرعاً** : معلنين التذلل لله . **يلبسكم** : يخلطكم فى المعارك . **شيعاً** : فرقاً مختلفة الأهواء .

بأس بعض : شدة بعض فى القتال .

وكيل : حفيظ . **يخوضون** : يأخذون فى الاستهزاء والطعن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قدرة الله فى الحياة والموت والبعث .

٢ ـ بيان أهمية تطبيق الشريعة وفق ما شرع الله لا وفق أهوائنا .

٣ ـ أن نعرف كيف نواجه المستهزئين بكتاب الله وآياته ومنهجه .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من علم الله الشامل بمفاتح الغيب ، وبما يجرى فى جنبات الكون ، إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، فى ذوات البشر ، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم المحيط ، فيتحدث عن الوفاة حين النعاس ، فى صورة من صورها بما يعترى الحواس من غفلة ، وما يعترى الحس من سهوة ، وهو السر الذى لا يعلم البشر كيف يحدث ؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره ويردف بإحاطة علمه بكل ما تتحرك به الجوارح لأخذ أو ترك ، فالله يعلم ما كسبت من خير أو شر فالبشر جميعاً مراقبون فى الحركات والسكنات ؛ لا يندّ عن علم الله منهم شىء ، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

ثم يوقظهم فى النهار من سباتهم وانقطاعهم ؛ لتتم الآجال التى قضاها الله ، وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذى قدره الله ، لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه ! ثم يعرض السجل الذى وعى كل ما كان منهم ، وهو العدل الدقيق الذى لا يظلم فى الجزاء .

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية يطرحها السياق ، لمسة القوة القاهرة فوق العباد ، والرقابة الدائمة التى لا تغفل ، والقدر الجارى الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذى لا مفر

منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذى لا ينى ولا يمهل ، وكله من الغيب الذى يلف البشر ويحيط بالناس ، فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان ؛ لا قوة لهم ولا ناصر ، هم عباد ، والقهر فوقهم ، وهم خاضعون له مقهورون .

يقول صاحب الظلال : « إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله فى الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدى الله ، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله ـ سبحانه ـ إلهاً فى الأرض ؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة ، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله ـ أو الشرك به باتباعهم شريعته فى جانب العبادات والشعائر واتباعهم شريعة غيره فى النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وفى المعاملات والارتباطات ، والله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية؛ وتلتجئ إلى إلهها الحق فى ساعة الشدة؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها فى اليسر والرخاء .

إن الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب ، فهم يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر ، فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله ، ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء .

وهنا يواجههم ببأس الله الذى قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هى مرة وتنتهى ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورن .

ولكن يضيف إلى ألوان العذاب الداخلة فى قدرة الله ؛ والتى قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لوناً آخر بطيئاً طويلاً؛ لا ينهى أمرهم كله فى لحظة ؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار ـ وهى صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذى يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ؛ إذ يجعلهم شيعاً وأحزاباً ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضاً ، فهى أبداً فى جدال وصراع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك .

قال المهايمى : « قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر : إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها ؛ لاستمرار منشأ الخوف ، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها .. » .

ثم يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يفاصل قومه فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ؛ لأنهم كذبوا بما جاءهم به ـ وهو الحق ـ ومن ثم الفصل ما بينه وبين قومه ، وأُمر أن يتركهم لمصيرهم الذى لابد آت ، وأمر أن يُعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون فى الدين ، ويتخذونه لعباً ولهواً ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين .

والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ويعطى المؤمنين من ورائه، لثقة التى تملأ القلب بالطمأنينة. الثقة بالحق ـ ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب ـ فما هم بالحكم فى هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين فى الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير ، وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله ـ فى مواجهة التكذيب من قومهم ؛ والجفوة من عشيرتهم ، والغربة فى أهلهم ، والأذى والشدة والتعب واللأواء ، ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التى يسكبها القرآن فى القلوب !

وينتقل السياق بعد الانتهاء من البلاغ ، ومواجهة التكذيب بهذه المفاصلة ، فإنه ﷺ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم ـ حتى للبلاغ والتذكير ـ إذا رآهم يخوضون فى آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغى للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الله موضعاً للعب وللهو ؛ بالقول أو بالفعل ، حتى لا تكون مجالسته لهم ـ وهم على مثل هذه الحال ـ موافقة ضمنية على ماهم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذى لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه ، فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم .

قال السيوطى فى الإكليل : « فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه ، ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ النوم هو الموت الأصغر ، وفى اليقظة منه دليل على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على بعثنا بعد موتنا للحساب والجزاء .

٢ ـ لله ـ تعالى ـ ملائكة يحفظون الإنسان يسجلون عمله وقوله ، ويخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت عندما يحين أجله .

٣ ـ لجوء الناس عند الشدائد إلى ربهم وتضرعهم إليه بالدعاء ؛ ليخلصهم مما هم فيه من مخاوف ومحن ، دليل على أن الإيمان بالله وحده فطرة فى النفس البشرية .

٤ ـ لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى .

٥ ـ عدم الجلوس مع المستهزئين بكلام الله أو المكذبين بالدين ، حتى يأخذوا فى كلام آخر فيه جد وصدق ، ومن جلس مع هؤلاء المكذبين ناسياً . فلا يقعد بعد التذكير مع هؤلاء الظالمين .

٦ ـ وجوب القيام احتجاجاً من أى مجلس يُعصى فيه الله ورسوله .

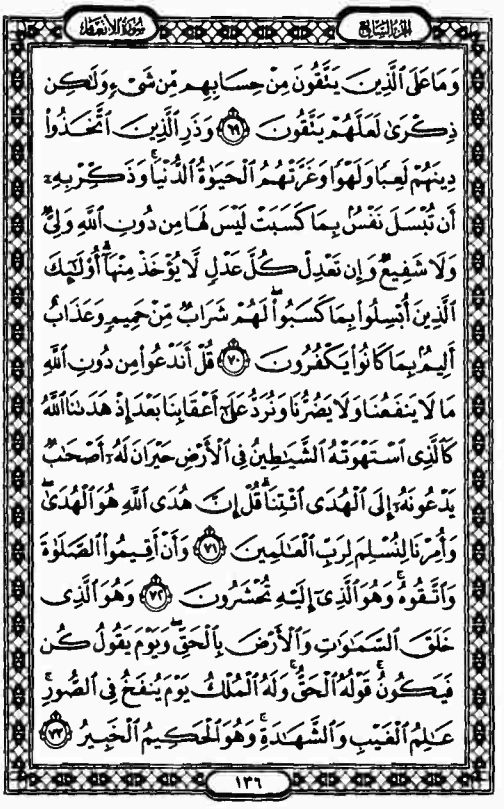
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾
١٣٦

معانى الكلمات :

غرتهم : خدعتهم وأطمعتهم بالباطل .

أن تبسل : تحبس فى النار أو الهلاك .

تعدل كل عدل : تفتد بكل فداء .

أبسلوا : حبسوا فى النار . **حميم** : ماء وصل إلى نهاية الحرارة . **استهوته** : أضلته .

الصور : البوق (القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل نفخة البعث)

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حرمة مجالسة الذين يستهزئون بالله وبآياته ، ويتخذون دينه لعباً ولهواً .

٢ ـ أن نعرف ضوابط معاملة ومجالسة الظالمين .

٣ ـ أن نوقن بأن هدى الله هو الهدى، وأن شريعته هى النجاة من الانحراف والضلال والتيه .

٤ ـ أن نسلم لرب العالمين فى أقوالنا وأفعالنا طائعين مأجورين .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق ليقرر أنه ليس هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين ، فهما أمتان مختلفتان، وإن اتحدتا فى الجنس والقوم فهذه لا وزن لها فى ميزان الله ، ولا فى اعتبار الإسلام . إنما المتقون أمة ، والظالمون (أى المشركون) أمة ، وليس على المتقين شىء من تبعة الظالمين وحسابهم، ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم ، وإلا فلا مشاركة فى شىء ، إذا لم تكن مشاركة فى عقيدة !

هذا دين الله وقوله ، ولمن شاء أن يقول غيره ، ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق فى تقرير هذه المفاصلة ، وفى بيان الحدود التى تكون فيها المعاملة .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : « ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية : نقف من الآية أمام عدة أمور :

أولها : أن الرسول ﷺ ـ وينسحب الأمر على كل مسلم ـ مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً ، وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل ، فالذى لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة وقانوناً ، إنما يتخذ دينه لعباً ولهواً، والمسلم مأمور بمفاصلة هؤلاء ومقاطعتهم إلا للذكرى، فهم الظالمون ـ أى المشركون ـ والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

ثانيها : أن الرسول ﷺ ـ وينسحب الأمر على كل مسلم ـ مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ـ أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

ثالثها : حدود مجالسة الظالمين ـ أى المشركين ـ والذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير ، فليست لشىء وراء ذلك ـ متى سمع الخوض فى آيات الله ، أو ظهر اتخاذها لعباً ولهواً بالعمل بأية صورة .

ويقول صاحب الظلال : إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية فى الحدود التى بينها ، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور؛ لأنه ـ فى ظاهره ـ إقرار للباطل، وشهادة ضد الحق ، وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفى هذه الحالة يكون النهى والمفارقة .

وتمضى الآيات ويأمر الله نبيه ﷺ :قل لهم يا محمد ماهم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به، وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ، فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجرى بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور .

ويأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم مستنكراً دعوة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله ، وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه ، وسواء كان ذلك رداً على ما كان يقترحه المشركون على النبى ﷺ من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارًا مبتدأ لما عليه المشركون، وإعلانًا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبى ﷺ والمؤمنين، فإن المؤدى فى النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذى يرفضه العقل البشرى ذاته متى عرض له فى النور ، بعيداً عن الموروثات الراسبة ، وبعيداً كذلك عن العرف السائد فى البيئة !

ويجسم هذا السخف ويعرض له فى ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذه وحده إلهاً ، والدينونة له وحده بلا شريك وإلا فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء ، ويصور السياق من يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة

من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ، ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه : ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ وهو بين هذا الاستواء وهذا الدعاء ﴿ حَيْرَانَ ﴾ لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجيب !

ويأتى التقرير الحاسم ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ وهنا **يقول صاحب الظلال** : لقد ذاقت البشرية من ويلات الضلال ـ وما تزال كلها تذوق ما هو حتمى فى تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله ، والذى يريد أن يتملى شقاء البشرية فى انحرافها عن هدى الله لا يحتاج أن ينقب ، فهو حوله فى كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدى ؛ ويصرخ منه العقلاء فى كل مكان ، ومن ثم يستطرد السياق ؛ ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه .

لذا يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بأن يعلن لهم أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا ـ من ثم ـ أمرنا أن نسلم لرب العالمين ، وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجىء التكاليف التعبدية والشعورية ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ وهذا الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب فهو الذى إليه تحشر الخلائق ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو السلطان القادر صاحب المشيئة المطلقة التى تعمل بكن فيكون ؛ قوله الحق فى هذا كله ، فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لا ينفع ولا يضر من خلقه ، فالملك كله بما فيه له يوم ينفخ فى الصور ، فلا سلطان إلا سلطانه ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى لمن يأبون الاستسلام فى الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ فى الصور ، وهو عالم الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود ، وهو الذى يصرف أمور الكون الذى خلقه بالحكمة والخبرة فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه عز وجل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على المؤمن أن يقوم بواجبه فى عظة وتذكير من يستهزئ بالدين بما يمكنه ، ولا يشترط معه فى شىء من ذلك .

٢ ـ القرآن خير واعظ ومذكر ، فعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يسلكوا طريقته الحكيمة فى التذكير والموعظة الحسنة مستشهدين بآياته الكريمة .

٣ ـ لا هدى إلا هدى الله ، والإعراض عنه ضلال وتيه وانحراف ، فلابد أن نسلم لرب العالمين . وإلا فهو ارتداد على الأعقاب وشقوة للعالمين .

٤ ـ لا سلطان إلا سلطان الله ، ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى بنا أن نستسلم لله رب العالمين فى الدنيا ، طائعين مأجورين قبل أن نستسلم له فى الآخرة مُرغمين مأزورين .

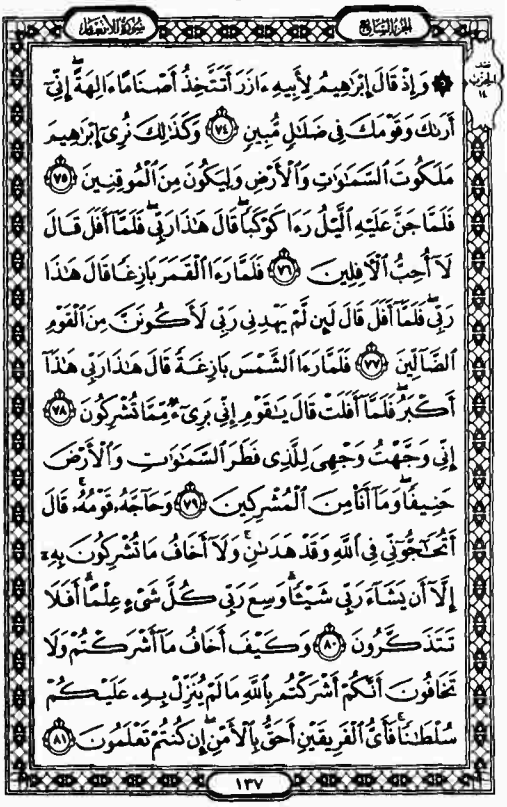
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

معانى الكلمات :

آزر : لقب والد إبراهيم أو اسم عمه .

ملكوت : ملك ، أو آيات .

جنّ عليه الليل : ستره بظلامه .

أفل : غاب وغرب تحت الأفق .

بازغاً : طالعاً من الأفق منتشر الضوء .

فطر السموات : أوجدها وأنشأها .

حنيفاً : مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق .

حاجه قومه : خاصموه فى التوحيد ، وجادلوه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر العبر والعظات من قصة الخليل إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ أن نحسن استخدام وسائل الإقناع بالأدلة المادية فى مجادلة الخصوم .

٣ ـ أن نتمسك بالحق ولا نجامل بالميل إلى الباطل مهما كان أنصاره أقوياء .

المحتوى التربوى :

تطلعنا هذه الآيات على الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم عليه السلام الصادقة رحلة من نقطة الإيمان الفطرى إلى نقطة الإيمان الواعى ! الإيمان الذى يقوم على التكليف بالفرائض والشرائع والذى لا يكل الله ـ سبحانه ـ جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها . فيبينه لهم فى رسالات الرسل ، ويجعل الرسالة ـ لا الفطرة ولا العقل البشرى هى حجته عليهم ، وهى مناط الحساب والجزاء ، عدلاً منه ورحمة ، وخبرة ـ بحقيقة الإنسان وعلماً .

وترسم الآيات صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام وقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل باله ، وتزحم عالمه . ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ، فلما أن يئس من أن يكون إلهه الحق ـ الذى يجده فى فطرته فى صورة غير مدركة ولا واعية صنماً من تلك الأصنام فلعله رجا أن يجده فى شىء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربًا ! ولكن لا ! إنه يكذب ظنه : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾

إنه يغيب ، يغيب عن الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها ، إذا كان الرب يغيب ؟! لا ، إنه ليس ربًا ، فالرب لا يغيب !

والصلة بين الفطرة وإلهها هى صلة الحب ؛ والآصرة هى آصرة القلب ، وفطرة إبراهيم لا تحب الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلهاً ، إن الإله الذى تحبه الفطرة ، لا يغيب ! ويتكرر المشهد مع القمر ، وهنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجده فى ضميره وفطرته ، ربه الذى يحبه ، ولكنه بعد لم يجده فى إدراكه ووعيه ، ويشعر أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته . إن لم يمد إليه يده ويكشف له عن طريقه .

وتأتى التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءًا وحرارة الشمس ، والشمس تطلع كل يوم وتغيب ، ولكنها اليوم تبدو لعينى إبراهيم ﷺ كأنها خلق جديد ، إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به وإليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل ، ولكنها كذلك تغيب ، وهنا يقع التماس ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعى ، هنا يجد إبراهيم إلهه ولكنه لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تسطع ، ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس ، إنه يجده فى قلبه وفطرته ، وفى عقله ووعيه ، وفى الوجود كله من حوله ، إنه يجده خالقاً لكل ما تراه العيون ، ويحس الحس ، وتدركه العقول .

وعندئذ يجد فى نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فى كل ما يعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ فى حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم ، وما هم عليه من الشرك ـ وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة ـ وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك

لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله ـ سبحانه ـ فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله ، وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه فى الطريق ، والآن يجىء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه آلهتهم التى تنكر لها أن تنزل به سوءًا ، وهو يواجههم فى يقينه الجازم ؛ وفى إيمانه الراسخ وفى رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه .

ولكن إبراهيم المؤمن الذى وجد الله فى قلبه وعقله وفى الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكراً فى طمأنينة ويقين ﴿ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ : أتجادلوننى فى الله ، وقد وجدته يأخذ بيدى ، ويفتح بصيرتى ، ويهدينى إليه ، ويعرفنى به ، لقد أخذ بيدى وقادنى فهو موجود ، فما جدالكم فى أمر أنا أجده فى نفسى ولا أطلب عليه الدليل. فهدايته لى إليه هى الدليل ؟!

ويؤكد أنه لا يخاف ما يشركون ، وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة ـ غير قوة الله ـ هزيلة وكل سلطان ـ غير سلطان الله ـ لا يُخاف ؟ !

ولكن إبراهيم فى عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشىء إلا مرتكنًا إلى مشيئة الله المطلقة وإلى علمه ـ عز وجل ـ الشامل ، فهو يكل كل شىء إلى مشيئة الله وحمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته ، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذى يسع كل شىء .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ الآية :

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم ـ وليس هو المؤمن الذى يضع يده فى يد الله ويمضى فى الطريق ـ وكيف يخاف آلهة عاجزة ـ كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتى تتبدى أحياناً فى صورة جبارين فى الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعفون ! ـ كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأى الفريقين أحق بالأمن ؟ الذى يؤمن به ، ويكفر بالشركاء ، أم الذى يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ، أى الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شىء من العلم والفهم ؟ ! هنا يتنزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضى الله بحكمه فى هذه القضية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركًا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فطرة المؤمن تدل على وجود الله الواحد الأحد ، وإيمانه بالله يقوم على التكليف الفرائضى والشرائع الورادة إليه عن طريق الرسل والرسالات .

٢ ـ الرسالة هى طريق المؤمن إلى معرفة الله عز وجل ، ليست الفطرة ولا العقل البشرى حجة الله ـ عز وجل ـ على خلقه ، بل نزول الرسالة هو مناط الحساب والجزاء .

٣ ـ لابد من معاملة الخصوم بالحجة والإقناع بالأدلة المادية الواضحة والبراهين القوية .

٤ ـ على الدعاة إلى الله التمسك بالحق وعدم مجاملة أحد بالميل إلى الباطل مهما كان أنصار هذا الباطل أقوياء .

٥ ـ الأحق بالأمن فى الدنيا والآخرة هم المؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ـ أى شرك ـ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ
قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

معانى الكلمات :

لم يلبسوا : لم يخلطوا . **بظلم** : بشرك ـ بكفر . **اجتبيناهم** : اصطفيناهم للنبوة .

لحبط : لبطل وسقط . **الحكم** : الفصل بين الناس بالحق . **اقتده** : اقتد ، والهاء للسكت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحقق شرطى الأمن فى الدنيا والآخرة وهما الإيمان وعدم الشرك .

٢ ـ أن نبين فضل الأنبياء والرسل على العالمين .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الله للرسل وإنزال الكتب .

٤ ـ أن نعلم أن الشرك بالله يحبط العمل ويهلكه .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذاالإيمان شركا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه ، هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون ، ثم يكشف الله لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسىء إليه ، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان فى الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة .لما واجههم بهذه الحجة التى آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة ، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفًا فى هذا بحكمته وعلمه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

بعد ذلك يعرض السياق موكب الإيمان الجليل ، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً ، ولا يراعى التسلسل التاريخى فى هذا العرض ؛ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخى .

يقول صاحب الأساس : « ثم ذكر الله ما منّ به على إبراهيم من رزقه إسحاق بعد أن طعن فى السن، ومن بعده يعقوب بن إسحاق، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله فى الأرض ، فعوض الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه وعلى دينه ؛ كإسحاق ويعقوب ، وكلا منّ الله عليه بالهداية الكاملة التى هى النبوة والرسالة ، مثل ما منّ الله على نوح عليه السلام من قبل بالهداية الكاملة ، والذرية الصالحة الباقية ، فكل من فى الأرض من الخلق ذريته ، وقد جعل الله من ذريته إبراهيم عليه السلام الأنبيان والرسل الكثيرين » .

وفى الآيات ذكر لسبعة عشر نبياً رسولاً ـ غير نوح وإبراهيم ـ وإشارة إلى آخرين ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ والتعقيبات على هذا الموكب ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .. ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .. ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « وذكر هذا الرهط على النحو ، واستعراض هذا الموكب فى هذه الصورة ، كلمة تمهيد للتقريرات التى تليه ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . وهذا تقرير لينابيع الهدى فى هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذى يجب اتباعه ، فى هذا المصدر الواحد ، الذى يقرر الله ـ سبحانه أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذى يهدى إليه من يختار من عباده، ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ؛ وتوحيد المصدر الذى يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله فى الاعتقاد أو العبادة أو التلقى ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم ، أى أن يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التى ترعى نبتًا مسمومًا فتنتفخ ثم تموت ، وهذا هو الأصل اللغوى للحبوط !

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ ؛ وهذا هو التقرير الثانى ، فقرر فى الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذى جاءت به الرسل ، وقرر فى الثانى أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة والحكم يجىء بمعنى الحكمة كما يجىء بمعنى السلطان كذلك ـ وكلا المعنيين محتمل فى الآية ، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى ، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان ـ وكلهم أوتى السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله .

وأن الدين الذى جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور ، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط . كما جاء فى الآيات الأخرى . وكلهم أوتى الحكمة وأوتى النبوة .. وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ،

ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه ، فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ فإن دين الله غنى عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين !

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، وهو التقرير الثالث ، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله ، وهداهم الذى جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به . فهذا الذى وحده هو الذى يدعو إليه ويبشر به .. قائلاً لمن يدعوهم : ﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ .. ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لا يُختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافة ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود فى قصة اللديغ من قوله ﷺ : « إن حق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهما » .

قال العلامة الشوكانى : حديث : « أحق ما أخذتم عليه أجرا » عامٌ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئا ، ونحو ذلك ، فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلا تحت العموم ، وبعض أفراد العام فيه أدلة خاصة تدل على جوازه كما دل العام على ذلك ، فمن تلك الأفراد ... تعليم المرأة فى مقابلة مهرها ... »

قال صاحب الأساس : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ قالوا . ومعنى توكيلهم بها أنهم وفّقوا للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ، كما يوكل الرجل بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه ، أقول : ومن الموكلين من أشار إليهم الرسول ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيمان وعدم الظلم (أى الشرك) شرطان لتحقيق الأمن فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ خير ما يعطى المرء فى هذه الحياة أن يوفقه الله إلى الهداية والتزام الطريق المستقيم .

٣ ـ أنبياء الله ورسله ـ عليهم السلام ـ هم خير المهتدين وأفضل الطائعين .

٤ ـ مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم لعلهم يهتدون .

٥ ـ أحق العباد بالأمن من الخوف من آمن بالله ولم يشرك به شيئاً .

٦ ـ الشرك محبط للعمل كالردة والكفر .

٧ ـ وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ وأهل العلم والصلاح من هذه الأمة .

٨ ـ القرآن الكريم ذكرى لكل من يقرؤه أو يستمع إليه وهو شهيد حاضر القلب .

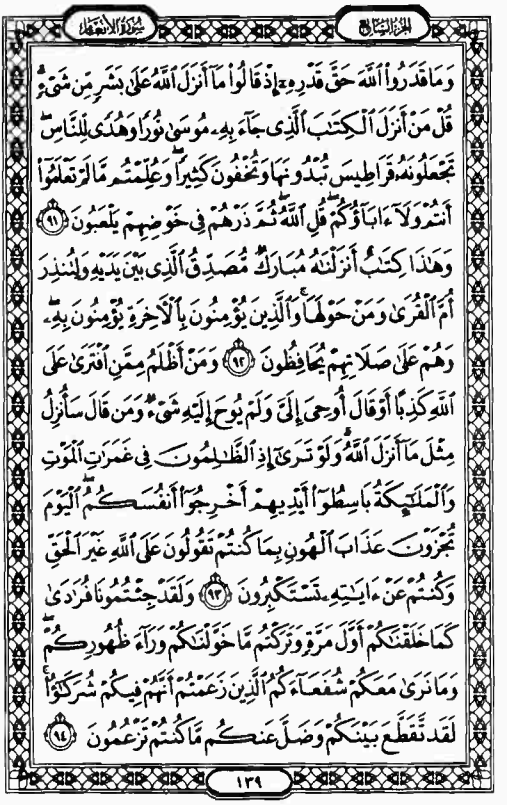
وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾
١٣٩

معانى الكلمات :

ما قدروا الله : ما عرفوا الله . **قراطيس** : أوراقا مكتوبة مفرقة . **خوضهم** : باطلهم . **أم القرى** : مكة أى أهلها . **من حولها**:أهل المشارق والمغارب . **غمرات الموت** : سكراته وشدائده . **عذاب الهون** : الذل والخزى . **ما خولناكم** : ما أعطيناكم من متاع الدنيا

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف مقتضيات الإيمان ونتخلق بمظاهر الهداية والاستقامة .

٢ ـ أن نعظم الله ونقدره ونعرفه حق المعرفة عن طريق كتبه ورسله وآياته فى كتابه المنظور وهو الكون .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع الطغاة والظالمين يوم القيامة ونحذر أن نكون منهم .

٤ ـ أن نعلم مقتضيات الشفاعة ونعمل لها قبل يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

تندد هذه الآيات بمنكرى النبوات والرسالات ، وتصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله.

وتقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجرى على سنة الرسالات قبلها؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب ؛ فلقد كان المشركون فى معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولًا من البشر ؛ ولم ينزل كتابًا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم فى الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام إنما هم كانوا يقولون ذلك القول فى زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ لذلك يوجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم : ما أنزل الله على بشر من شىء .

كما يواجههم بالكتاب الذى جاء به موسى من قبل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب فى الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحى ؛ بتلك الحقيقة ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه أن يسألهم من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكريه !

كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ؛ فكان حقاً عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ﷺ أن يحسم القول معهم فى هذا الشأن؛وألا يجعله مجالاً لجدل لا يثيره إلا اللجاج : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

وتمضى الآيات تحكى شيئاً عن الكتاب الجديد ، الذى ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله .فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعاً من الكتب التى ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام ؛ إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل عليهم الكتب . وهنا الكتاب الجديد الذى ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك .. وصدق الله. فإنه والله لمبارك .

ويقول صاحب الظلال: فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكى ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة ـ أم القرى ـ وما حولها ، وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها. فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمداً ﷺ ما كان يقصد فى أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها ، وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذى ما كان خياله يطمح فى أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع فى الجزيرة كلها ، ثم همَّ أن يتخطاها لمصادفات لم يكن فى أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها، وكذبوا ففى القرآن المكى وفى أوائل الدعوة قال الله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة فى شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !

وتعرض الآيات مشهد الظالمين الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له ، أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . مشهد هؤلاء الظالمين ـ الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا الظلم هذا ظلم ـ وهم فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شىء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم .

والمشهد الذى ترسمه الآيات فى جزاء هؤلاء الظالمين مشهد مفزع مرعب مكروب ، الظالمون فى غمرات الموت وسكرته والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب وهم يطلبون : أرواحهم للخروج ! وهم يتابعون بالتأنيب ، جزاء استكبارهم ، وجزاء الكذب على الله .

ثم فى النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذى كذبوا عليه ، وهاهم أولاء بين يديه ، يواجههم فى موقف الكربة والضيق : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقد ند عنكم كل شىء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شىء مما ملككم الله إياه ، وتركتم كل شىء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شىء منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا ﴾ فأين ذهب الشركاء والشفعاء : تقطع كل شىء كل ما كان موصولاً ، كل سبب وكل حبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدّعونه من شتى الدعاوى،ومنها أولئك الشركاء، وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير فى عالم الأسباب .

وهكذا عرض الله علينا ما يناله هؤلاء الظالمون من تقريع وتوبيخ ساعة موتهم ويوم بعثهم ، وما بعد ذلك من العذاب أشد ؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله حّق الإيمان ، ولم يعظّموه حق التعظيم ، ولم يعرفوه حق المعرفة ، بحيث يؤمنون به،وبصفاته التى تقتضى إيماناً باليوم الآخر ،وإيماناً بالرسّل ، وإيمانا بالوحى ، وبُعداً عن الكذب عليه أو تكذيب رسله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من مقتضيات الإيمان بالله توحيده وخوفه وحده ، وأن من منن الله على من وحده أن يهديه ، وأن محمداً ﷺ مظهر من مظاهر استمرار التوحيد والهداية .

٢ ـ من تعظيم الله وكمال معرفته الإيمان بأنه ينزل وحياً ويرسل رسُلاً ، وأن محمداً ﷺ هو الذى يعظم الله حق التعظيم ويعرفه حقَّ المعرفة .

٣ ـ من لم يؤمن بالقرآن ، أو ادّعى على الله ما لم يتصف به ، أو ادّعى أن الله أنزل عليه ولم ينزل أظلم الخلق وأن هؤلاء الظالمين سيرون مغبة ظلمهم توبيخًا وتقريعًا،يوم يموتون،ويوم يبعثون .

٤ ـ فى يوم القيامة تنقطع العلاقات ، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح فى هذه الدنيا .

٥ ـ انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعة النبى ﷺ ، والعلماء والشهداء بشروط هى : أن يأذن الله للشافع أن يشفع ، وأن يرضى عن المشفوع له .

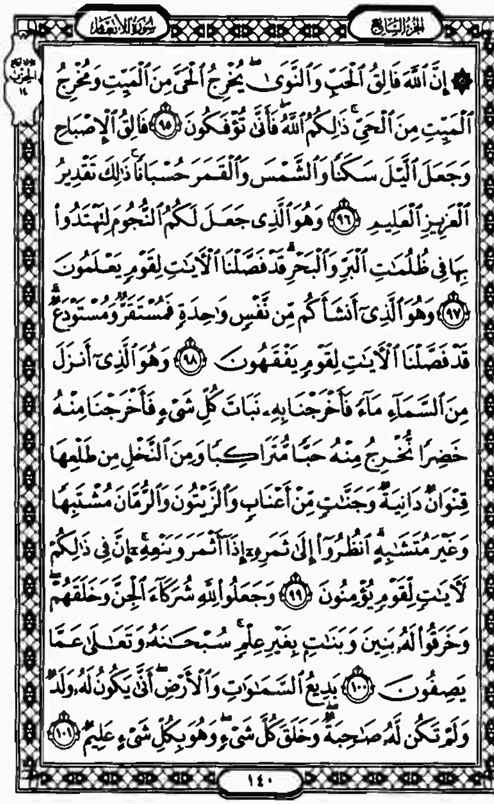
الجزء السابع — سورة الأنعام

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا
بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

١٤٠

معانى الكلمات :

فالق الحب : شاقُّهُ عن النبات ، أو خالقه

فأنى تؤفكون:فكيف تُصرَفُون عن عبادته .

فالق الإصباح : شاقُّ ظلمته عن بياض النهار . **حسبانا** : وسيلة لحساب السنين والأيام . **مستقر**: فى الأصلاب . **مستودع** : فى الأرحام . **حباً متراكباً** : متراكما كسنابل الحنطة . **طَلْعِهَا** : هو أول ما يخرج من ثمر النخل . **قنوان**:جمع قنو وهو عنقود البلح . **دانية** : قريبة أو متدلية .

وينعه : حال نضجه وإدراكه .

خرقوا له : اختلقوا وافتروا له ـ سبحانه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر فى خلق الله ، ونتأمل فى مشاهد الكون من حولنا ، فإن ذلك يزيد الإيمان بالله .

٢ ـ أن نعرف قيمة العقل فى إدراك العقيدة الصحيحة .

٣ ـ أن نوقن أن الله ـ عز وجل ـ منزه عن الشريك والولد والشبيه .

٤ ـ أن نحرر التوحيد لله ـ عز وجل ـ ونقدسه وننزهه عن كل نقص .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات الرائعة الباهرة يأتى الحديث عن المعجزة التى لا يدرى سرها أحد ؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة ـ نشأة وحركة ـ وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة والحياة الكامنة فى الحبة والنواة فى النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولا يعلم مصدره إلا الله .

ومنذ البدء أخرج الله الحى من الميت فقد كان هذا الكون ولم يكن هناك حياة ، ثم كانت الحياة ، أخرجها الله من الموات كيف ؟ لا ندرى ! وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة ـ عن طريق الأحياء ـ إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام

الحية ؛ وتتحول ـ وأصلها ذرات ميتة إلى خلايا حية والعكس كذلك ، ففى كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

ويعقب الله على هذه المعجزة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ ذلكم الله الذى يستحق الربوبية فيكم والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم ، ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله ، وفالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضًا ، وهو الذى جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما ، مقدرًا ذلك كله بقدرته التى تهيمن على كل شىء ، وبعلمه الذى يحيط بكل شىء .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تأتى هذه الآية تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه ، وتتمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطًا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم .

ويعود السياق فيلمس النفس البشرية ذاتها ، حيث تبدأ الحياة خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفسٌ هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفسٌ هى مستقر لها فى رحم الأنثى ، ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار ، فإذا أجناس وألوان وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التى لا تُحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

ثم يمضى السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ، تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب ، وترى فيها بدائع صنع الله ، والسياق يعرضها ـ كما هى فى صفحة الكون ، ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم ، ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة ؛ فقد شارك الماء ابتداء ـ بتقدير الله فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات ، ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط (النتروجين ـ الأزوت) من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح فى الذوبان فى الماء يسقط مع المطر ؛ ليعيد الخصوبة إلى الأرض ، وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه » .

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشرى صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وتدبيره ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض فى كل حى ، الناطق ببديع صنع الخلاق ، عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب فى هذا الجو المؤمن الموصول

بمبدع الوجود ويعرض أوهام المشركين ، فإذا هى سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعان ما يعقب عليها بالاستنكار .

وقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن ، وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انساقت فى انحرافها إلى أى مدى ؛ وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ !

وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل ، دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة ، ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد ، ولابد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرًا .

ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله وهم من خلقه ـ سبحانه .

ويواجه القرآن الكريم فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة ، فيرد عليهم بأن الذى يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق ؟! والخلق إنما هو امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر ، أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه ، فكيف يكون لله ولد ـ وليست له صاحبة ـ وهو سبحانه ـ فرد أحد ، ليس كمثله شىء ، فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟ كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قال صهيب الرومى رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه ـ [رواه ابن أبى حاتم] .

٢ ـ قال ابن كثير : قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله ـ سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البرِّ والبحر .

٣ ـ الدين الإسلامى يحترم العقل ، ويدعو إلى استخدامه فيما يعتنق الناس من مبادئ صالحة، وما يختارون من ألوان السلوك الرشيد .

٤ ـ الحث على البحث فى الطبيعة ، وخواص المادة ؛ للإفادة مما أودع الله فيها من خواص ومنافع ، ودراسة علم النبات ، والربط بينه وبين الإيمان .

٥ ـ إن العقيدة الصحيحة هى التى تنشأ عن الفهم والاقتناع ، لا عن مجرد التقليد والمحاكاة .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ
فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا
جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
١٤١

معانى الكلمات :

وكيل : رقيب . **لا تدركه الأبصار** : لا تحيط به ـ تعالى . **بصائر** : آيات وبراهين .

درست: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب .

عدوًا : اعتداءً وظلمًا . **نذرهم** : نتركهم .

يعمهون : يتحيرون أو يعمون عن الرشد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف إلى الله بأسمائه وصفاته ونقدسه ـ عز وجل .

٢ ـ أن نوقن أن الله هو الإله الواحد المعبود بحق ، والمتصرف فى خلقه بما يريد .

٣ ـ ألا نتعرض للآخرين بالسب والتجريح حتى لا يسيئوا للدعوة ، ولا يعتدوا على ديننا ـ ظلماً وجهلاً .

٤ ـ أن نعلم أن الهداية جزاؤها خير لصاحبها ، والضلال شقوة على الكافرين .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات وتقرر أن الله هو الذى خلق السموات والأرض وأبدعهما ، وخلق كل شىء والذى هو بكل شىء عليم ، هو ربنا ، لا الجنّ ولا غيرهم ، فهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء ، وهو الذى يستحق العبادة وحده ، فاعبدوه وحده ؛ إذ هو الحفيظ والرقيب والمدبّر لكل من سواه ، يرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

وهذا الإله العظيم لا تدركه الأبصار فى الدنيا ، ولا تحيط به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكنه عظمته وجلاله على ما هو عليه ، أما هو فإنه يدرك الأبصار يراها ويحيط بها علماً على ما هى عليه ؛ لأنه خلقها ، إذ هو اللطيف الذى يعلم دقائق الأمور ومشكلاتها ، العليم بظواهر الأشياء وخفياتها .

وبعد أن قررت الآيات شرك من أشرك وردت عليهم الرد البليغ العجيب المدهش الذى فيه وصف الذات الإلهية مما يّدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ من يستطيع أن يصف الله هذا الوصف المدهش إلا هو ـ جل جلاله .

ثم إنه بعد هذا الرد والبلاغ يذكر الله ـ عز وجل ـ أنّة بإنزاله هذا القرآن قد أعطى البشر البصائر كلها أى : البينات والحجج التى يرى بها الإنسان الأشياء على ماهى عليه ، فمن أبصر بها

وعلى ضوئها ، فمصلحة ذلك عائدة عليه ، ومن عمى عنها ولم ير بها فوبال ذلك عائد عليه ، ومحمد ﷺ مبلغ وما هو بحافظ ولا رقيب .

ثم بيّن ـ تعالى ـ أنه بمثل هذا البيان الرائع ، وهذا التقرير العظيم ، وهذه الحجة الواضحة ، يبيّن الآيات ، ويوضحها ويفسرها ، ويكررّها ، فأما الكافرون والمشركون والمنافقون ، فإنّهم بدلاً من أن يؤمنوا يتّهمون الرسول ﷺ بأن هذا الكتاب أثر عن دراسته ومدارسته مع أهل الكتاب ، لا أثر عن نبوته والوحى إليه ، وأما العالمون فيؤمنون ، ويتضح لهم بهذا الإيمان الحقّ كله فى كل شىء نتيجة هذا التصريف للآيات بمثل هذا البيان والكمال .

وبعد هذا البيان يأتى أمر ونهى لرسول الله ﷺ ولأمته من بعده :

أما الأمر فهو : أن عليه ﷺ أن يتبع ما أنزل الله عليه بالاقتداء به واقتفاء أثره والعمل به ، وأن عليه أن يعرض عن المشركين بالعفو والصفح ،واحتمال الأذى حتى يفتح الله ثم يبيّن الله ـ تعالى ـ أن لله حكمة فى إضلال الضالين ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، فله المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون،وإذا كان الأمر كذلك، فالله وحده هو الحفيظ على أقوالهم وأفعالهم ، وهو الوكيل على أمورهم وأرزاقهم وليس محمد ﷺ بوكيل ولا بحفيظ بل هو مبلغ فقط .

ثم نهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، حتى لا يسبوا الله ـ ظلماً وجهلاً ، ثم بيّن ـ تعالى ـ أنه كما زّين لهؤلاء القوم حب أصنامهم المحماة لها والانتصار ، كذلك زُيِّن لكل أمة ضالة من الأمم الخالية عملهم الذى كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ، وإليه المعاد ، وسوف يُحاسب الجميع على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قال أبو السعود : « إن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقة التى بها يظهر فى النشأة الآخرة ، فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت به هذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها الأحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فأعمال الكفر قد برزت لهم فى هذه النشاة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة ، وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ .. » .

ويخبر الله ـ تعالى ـ عن المشركين والكافرين أنهم يحلفون الأيمان المؤكدة لئن جاءتهم معجزة خارقة ليصدقُنّها ، وهذا يفيد أنهم يدّعون أنّ الآيات ليست كافية للإيمان ، أو أنها غير موجودة ، وهذا كذب وافتراء وتعنت منهم ، ولقد أمر الله رسوله أن يعلن أن أمر الآيات إلى الله ، وأن الآيات عنده كثيرة ، وما أنزل فيه كفاية ولكنهم متعنّتون ولذلك خاطب المؤمنين مبيّناً لهم أن الكافرين إذا جاءتهم الآيات التى يقترحونها فإنّهم لا يؤمنون .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة هذا التوجيه لرسول الله ﷺ يحدد المجال الذى يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه فى كل أرض وفى كل جيل : إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة ، المعاندين الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموجبات الإيمان ، إنما يجب أن يفرغ قلبه ، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا ، فهؤلاء فى حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التى دخلوا الدين عليها ، قاعدة العقيدة ، وفى حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفى حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه ، وهذا كله يحتاج إلى الجهد ، ويستحق الجهد .

فأما الواقفون على الشق الآخر ، فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ ، وحين ينمو الحق فى ذاته فإن الله يجرى سنته ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق فى صورته الصادقة الكاملة ، فإن شأن الباطل هيّن ، وعمره كذلك قريب !

وأخيراً يختم هذا الدرس ، الذى استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق فى كل لحظة من ليل ونهار يختمه بأن هؤلاء المشركين الذى يقسمون جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية ليؤمنن بها ، إن هذا القلب الذى لا يؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود هو قلب مقلوب ؛ والله الذى يعلم حقيقة هذه القلوب يعوقهم عن الإيمان ويذرهم فى طغيانهم ؛ لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ، وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الإله الواحد المعبود بحق ، وهو خالق كل شىء ، وهو المتصرف فى خلقه بما يريد .

٢ ـ أن الله ـ تعالى ـ يحيط علمه بكل شىء ، ولا يخفى عليه شىء ، ونحن لا نستطيع الإحاطة به ـ تعالى ـ لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

٣ ـ جزاء الهداية يعود على المهتدى ، وعقاب الضلالة يعود على الضال .

٤ ـ إن الذين يطلبون فى سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون فى سماجة دليلاً مادياً على الله ! هؤلاء لا يدركون ماذا يقولون .

٥ ـ على الداعية أن يكون دقيقاً جداً فى طرق الخطاب وفى مواقفه وفى مناقشته ، ففى كثير من الأحيان لا يؤدى التجريح المباشر والمواجهة به إلى خير فى نقل الإنسان من حالة إلى حالة أطيب وأكرم ، ووضع الأمور فى مواضعها هو الحكمة ، والحكمة معنى زائد على العلم ، ومعرفة الحكم الشرعى .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا
شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
١٤٢

معانى الكلمات :

حشرنا : جمعنا . **قبلا** : مواجهة أو جماعة .

زخرف القول : القول الباطل . **لتصغى إليه** : لتميل إلى زخرف القول . **ليقترفوا** : ليفعلوا الذنوب . **الممترين** : الشاكين فى أنهم يعلمون ذلك . **كلمة ربك** : قرآنه .

يخرصون : يكذبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الهداية والضلال بيد الله ـ عز وجل ـ فهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

٢ ـ أن ندرك حكمة الله فى ترك الشياطين يكيدون لعباده فى كل وقت وحين .

٣ ـ أن نحذر التمويه والتغرير ، فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغرير .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق حديثه السابق الموصول فى نهاية الجزء السابع ؛ والمتعلق بما كان يقترحه مشركو العرب على رسول الله ﷺ من الخوارق التى يريدون أن يأتى لهم بها فيصدقوه ، وما كان من حلفهم بالله حلفا مكرراً مؤكداً أن لو جاءتهم هذه الآيات التى يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين أنفسهم يشتهون أن لو يجيبهم الله إلى ما يطلبون ! ويقترحون على رسول الله ﷺ أن يسأل ربه هذه الآيات التى يقترحها المقترحون .

ويقول محمد بن جرير الطبرى فى تفسير قوله ـ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .... الآية : « يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ يا محمد آيس من فلاح هؤلاء المعادين بربهم الأوثان والأصنام ، القائلين لك : ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا ، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ، ودلالة على نبوتك ، وأخبروهم أنك محق فيما تقول ، وأن ما جئتهم به حق من عند الله ؛ وحشرنا عليهم كل شىء فجعلناهم لك قبلا ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك ـ إلا أن يشاء الله لمن شاء منهم ولكن أكثرهم يجهلون بعد ذلك تجىء آيتان فى سياق السورة ؛ هما من ناحية تكملة للمعانى والحقائق التى تستهدفها الفقرة

السابقة التى انتهينا من الحديث عنها ، ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقدية المتعلقة بالسلطان والشريعة والحاكمية .

يقول الله ـ تعالى ـ كذلك قدرنا أن يكون لكل نبى عدوهم شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد فى الأرض . كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئه ، ولو شاء ربك مافعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذى كان . فليس شىء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شىء من هذا كله كان بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

ويأمر الله نبيه ﷺ أن يدعهم وافتراءهم فإنه ـ عز وجل ـ من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم ، ولتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، فهؤلاء يحصرون همهم كله فى الدنيا ، وهم يرون الشياطين فى هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبى ، وينالون بالأذى أتباع كل نبى ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والمعصية والفساد فى ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء .

يقول صاحب الظلال : « ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً ، إنه محاط بمشيئة الله وقدره ، لا يقدر الشياطين على شىء منه إلا بالقدر الذى يشاؤه الله وينفذه ويقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد ـ على ضخامته ـ تجمع قوى الشر العالمية كلها عليه ، مقيداً مغلولً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع ـ كما يحب الطغاة أن يلقوا فى روع من يعبدونهم من البشر ؛ ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم .. كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئته الله ، وما يضرون أولياء الله بشىء إلا بما أراده الله ـ فى حدود الابتلاء . ومرد الأمر كله لله .

ويأتى الحديث للقضية التى تعالجها السورة ـ قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وهى تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامى الأول : مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ، ويأتى السؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار ، استنكار أن يبتغى حكما غير الله فى شأن من الشؤون على الإطلاق ، وتقرير الحاكمية لله فى الأمر كله ، ونفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه فى أمر الحياة كله .

ثم تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التى تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكرًا غريبًا ، إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ .

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة فى مكة ، وفى الجزيرة يخاطب الله بها المشركين سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا ـ أو كتموها وجحدوها ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ . وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلا ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق يلتفت إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين به ، يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذى يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذى يجدونه من بعض أهل الكتاب ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ويمضى السياق فى هذا الاتجاه ؛ يُقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغًا ما بلغ كيدهم : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم .

ويحذر الرسول ﷺ أن يطيع الناس فى شىء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هى الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون ، ثم قرر أن الذى يحكم على العباد بأن هذا مهتدٍ وهذا ضال هو الله وحده ؛ لأن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة العباد ، وهو الذى يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال .

وبعد هذا التمهيد التقريرى تجىء قضية الذبائح ، فيأمر الله نبيه وأمته أن تأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وهذا الذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه ، ويعلن إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبى ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم « شياطين » ! شياطين الإنس والجن، وأن بعضهم يخدع بعضاً ، ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

٢ ـ أن حكمة الله وقدرته هى التى اقتضت أن يترك الشياطين من الإنس والجن يكيدون لتمحيص أوليائه وابتلائهم ؛ ليخلصون من خط أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء ، وفى المنشط والمكره سواء .

٣ ـ هوان الشياطين من الإنس والجن، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيلون بقوة ذاتية هم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم ، والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يقدر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم وسلطانهم المدَّعى .

٤ ـ من التضليل تحريم الكافرين ما أحل الله ، وتحليلهم ما حرمه ، فعلى المسلم أن يأكل مما ذكر اسم الله على ذبحه فذلك من الإيمان .

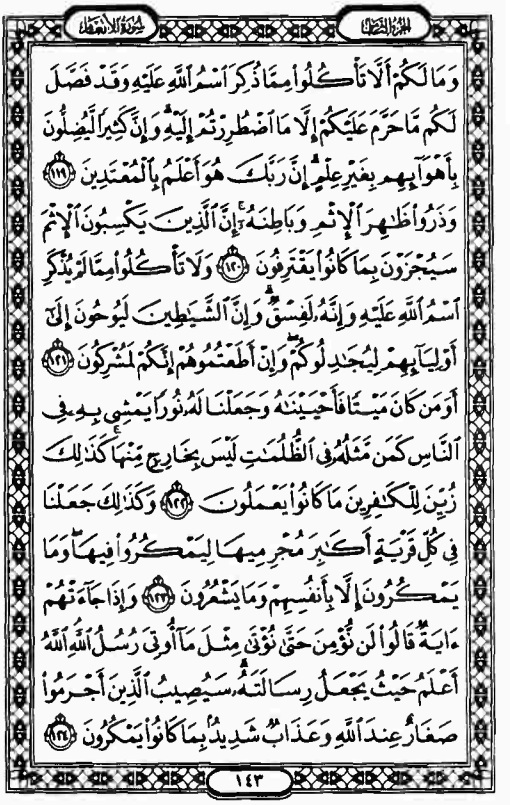
سورة الأنعام الجزء الثامن
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ
بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ
أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾
أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾
١٤٣

معانى الكلمات :

ذروا : تركوا . **يقترفون** : يفعلون من الذنوب أياً كانت . **إنه لفسق** : معصية وخروج عن الطاعة . **صغار** : هوان وذل عظيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سماحة ويسر الإسلام فيما شرعه الله على عباده من الحلال والحرام .

٢ ـ أن نعرف حكم أكل ما لم يذكر عليه اسم الله،ومتى تكون حالة الاضطرار والضرورة فى أكل ذبائح غير المسلمين ، وما لم يذكر عليه اسم الله .

٣ ـ أن نتجنب الجدال ، لأنه لا يأتى بخير .

٤ـ أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر.

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يسأل الله الذين أشركوا مالهم فى الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالاً ؟ وقد بينَّ الحرام الذى لا يأكلونه إلا اضطراراً ؟ فانتهى بهذا البيان كل قول فى حله وحرمته ؛ وفى الأكل منه أو تركه ؟

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة ـ إذ ذاك فى البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ، ويحلون ذبائح حرمها الله ـ ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! فإن السياق يفصل فى أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد .

ثم يأمرهم الله بأن يتركوا الإثم كله ـ ظاهره وخافيه ـ ومنه هذا الذى يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم، وحملهم على شرائع ليست من عند الله وافتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذى يقترفونه ، ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين فى تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون

مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التى لا حد لسخفها وتهافتها فى جميع الجاهليات .

وينتقل السياق ليصور طبيعة الكفر والإيمان ؛ ويقرر عدة حقائق يعبر عنها بصورة واقعية ، ويعلق صاحب الظلال على ذلك قائلاً : « إن هذه العقيدة تنشئ فى القلب حياة بعد الموت ؛ وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعيد بها تذوق كل شىء وتصوره ، وتقدير كل شىء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة ، ونوراً يبدو كل شىء تحت أشعته وفى مجاله جديداً ، كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذى نوره الإيمان .

والكفر انقطاع عن الحياة الأزلية الأبدية ، التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله ، فهو موت ، والإيمان اتصال ، واستمداد واستجابة، فهو حياة .

ويقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ؛ وكذلك كان المسلمون قبل هذا الدين قبل أن ينفخ الإيمان فى أرواحهم فيحييها ، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف ، كانت قلوبهم مواتاً ، وكانت أرواحهم ظلاماً ، ثم إذا قلوبهم ينفخ عليها الإيمان فتهتز ، وإذا أرواحهم يشرف فيها النور فتضىء ، ويفيض منها النور فتمشى به بين الناس تهدى الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر ، وتعلن فى الأرض ميلاد الإنسان الجديد ، الإنسان المتحرر المستنير ، الذى خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد ! أفمن نفخ الله فى روحه الحياة ، وأفاض على قلبه النور كمن حاله أنه فى الظلمات ، لا مخرج له منها ؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذى يمسك بمن فى الظلمات والنور حوله يفيض ؟ » .

وجعل الله فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ؛ ليتم الابتلاء ، وينفذ القدر ؛ وتتحقق الحكمة ، ويمضى كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه فى نهاية المطاف ، فهى سُنة جارية أن ينتدب فى كل قرية ـ نفرًا من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله ، ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذى يستطيلون به على الناس ، ومن الربوبية التى يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التى يستذلون بها الرقاب ، ويرد هذا كله إلى الله وحده ، رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

ويؤكد الله ـ عز وجل ـ أن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم ، فالله وليهم فيها ، وهو حسبهم وهو يرد على الكائدين كيدهم ، فليطمئن المؤمنون ؛ ثم يكشف السياق القرآنى عن طبيعة الكبر فى نفوس أعداء رسل الله ودينه والكبر الذى يمنعهم من الإسلام؛خشية أن يرجعوا عباداً كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع ، ويكبر عليهم

أن يؤمنوا للنبى فيسلموا ، وقد تعودوا أن يكونوا فى مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . من أجل ذلك يقولون قولتهم النكراء : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ وقد قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالاً ! وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !

ويرد الله على قولتهم المنكرة أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكونى الخطير ، ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقير وسوء المصير . والله وحده ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التى تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير . وقد جعلها ـ سبحانه ـ حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين ﷺ .

الذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ، أو يطلبون أن يؤتوا ما أوتى الرسول ؛ لأنهم يتخذون ذواتهم محورًا للوجود الكونى ، والرسل الذين يختارهم الله يهبون للرسالات أنفسهم ، وينسون فيها ذواتهم ويؤتونها من غير تطلع ولا ارتقاب .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الإسلام دين يسر وسماحة ، فهو يراعى أصحاب الأعذار والضرورات ؛ فيبيح لهم عند الضرورة ما كان محرماً عليهم ، ولكن بقدر دفع الضرر فقط .

٢ ـ بيّن الله ـ تعالى ـ الحلال والحرام ، وفصله فى كتابه الكريم ، فلا يجوز للإنسان ـ مهما كانت مكانته ـ أن يشرع غير ما شرعه الله ، ولا أن يتدخل فيحل ما حرمه الله ، أو يحرم ما أحله الله .

٣ ـ أحل الله الذبائح التى يذكر عليها اسم الله ، وحرم منها ما ذبح لغير الله ، وما ذكر اسم غير اسم الله عليها .

٤ ـ كثرة جدال المشركين للمؤمنين ومعاندتهم ؛ اتباعاً منهم لوساوس الشياطين التى اتخذوها أولياء من دون الله .

٥ ـ المؤمن الذى اهتدى بالقرآن قلبه حى بالقرآن يرى بنور الله ـ تعالى ـ ويفرق بين الحق والباطل ، أما الكافر فهو ميت الإحساس ، مظلم الضمير ، أعمى البصيرة لا يميز بين الحق والباطل .

٤٣٠ ـــ
معانى الكلمات :

حرجاً : شديد الضيق . يصعد فى السماء : يحاول صعودها فلا يستطيعه . الرجس : العذاب أو الخذلان . دار السلام : الجنة .

استكثرتم من الإنس: من دعوتهم للضلال. النار مثواكم : مأواكم ومستقركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سنة الله ـ تعالى ـ فى الهداية والإضلال .

٢ ـ بيان صعوبة وشدة ما يعانى الكافر إذا عُرض عليه الإيمان .

٣ ـ أن نعلم أن إرادة الله مطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

٤ ـ أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا .

٥ ـ أن نعلم العلة من إرسال الرسل .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات حالتى الهدى والإيمان فى داخل القلوب والنفوس ، فمن يقدر الله له الهداية ـ وفق سنته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ، ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ـ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ؛ فيتسع له ؛ ويستقبله فى يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ، ويستروح به ويستريح له . ومن يقدر له الضلال ـ وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة فى قبوله .

يقول صاحب المنار بمناسبة هذه الآية : « هذا وصف لحال المستعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته وطهارة نفسه من الخلقين الصادين عن إجابة دعوة الحق ، وهما الكبرياء والحسد وبتجليها ـ أى نفسه ـ بالهادين إلى الحق والرشاد ، وهما استقلال الفكر الصاد عن تقليد الآباء والأجداد ، وقوة الإرادة الصارفة عن اتباع الرؤساء أو مجاراة الأنداد ، فمن كان كذلك كان أهلا بإرادة الله ـ تعالى ـ وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذى هو دين الفطرة ومهذبها ، فإذا ألقيت إليه وجد لها فى صدره انشراحًا واتساعًا بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول ، وذلك أنه لا يجد مانعاً من

النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله فتظهر له آياته ، وتتضح له دلالته فتتوجه إليه إرادته ، ويذعن له قلبه فتتبعه جوارحه ، وهذا هو النور الذى يفيض عليه من القرآن والذى يسير فيه باتباعه له ، فهذه الآية مقابلة لآية المثل الذى ضربه الله ـ تعالى ـ فى هذا السياق للمؤمنين والكافرين فى قوله ـ تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر : ٢٢) .

ثم يجىء التعقيب الأخير فى هذا المقطع يربط قضية التشريع وهى قضية الحاكمية بالإيمان، فهذه وتلك صراط الله المستقيم ، والخروج فى واحد منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم والاستقامة عليهما معا العقيدة والشريعة هى الاستقامة على الصراط المؤدى إلى دار الإسلام وولاية الله لعباده الذاكرين .

وقد فصل الله آياته وبينها ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاكر لا يغفل ، وقلب منشرح مبسوط ، وقلب حى يستقبل ويستجيب ، والذين يتذكرون ، لهم دار السلام عند ربهم ، دار الطمأنينة والأمان ، مضمونة عند ربهم لا تضيع ، وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم ، ذلك بما كانوا يعملون .. فهو الجزاء على النجاح فى الابتلاء .

ويتواصل السياق القرآنى فى رسم مشاهده ، فيعرض الصفحة المقابلة فى المشهد على طريقة القرآن الغالبة فى عرض « مشاهد القيامة » ـ يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ـ غروراً وخداعاً وإضلالاً ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبى ؛ ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين فيما شرعه الله لهم من الحلال والحرام ، يعرضهم فى مشهد حى ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب .

فيسجل الله على الجن جريمة الاستكثار من الإنس ، وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال ويسخرونهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ، وهؤلاء الأغرار المستخفون كانوا يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، عندئذ يجىء الحكم الفاصل بالجزاء العادل أن النار مثابة ومأوى .

ويقول صاحب الظلال: بمثل هذا الذى قام بين الجن والإنس من ولاء ، وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير ، بمثل ذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، نجعل بعضهم أولياء بعض ، بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير .

ويستأنف السياق شطر المشهد الأخير ويسألهم الله ـ عز وجل ـ سؤال التقرير والتسجيل والتأنيب والتوبيخ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ .

ويتابع صاحب الظلال فيقول : وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ فأخذوا فى الاعتراف الكامل ، وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه ، قالوا : ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ وهنا يتدخل المعقب على المشهد فيقول : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو تعقيب لتقرير حالهم فى الدنيا ، فقد غرتهم هذه الحياة؛وقادهم الغرور إلى الكفر ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به؛ حيث لا تُجدى المكابرة والإنكار ، فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه فى هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

وفى ختام هذا المشهد المروع الشاخص يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإباحة هذا الحشد الحاشد إلى النار ، وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا ، ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحدًا إلا بعد الإنذار وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم (أى بشركهم) إلا بعد أن ينبههم من غفلتهم ، وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل شىء بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته ، وهو مطلع على قلب عبده ، عالم بسره وجهره ، فإذا مال العبد إلى الهداية يسرها الله له وشرح صدره للإيمان ، وإذا انصرف العبد عن نور الله جعل قلبه شديد الضيق لا ينفذ إليه نور الإيمان .

٢ ـ ليس للشيطان سلطان على عباد الله المؤمنين ، ولكنه يتسلط على الذين يعرضون عن الإيمان بالله ورسوله .

٣ ـ لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا ، فهو وحده المتصرف فى شؤون خلقه .

٤ ـ الله ـ تعالى ـ يولى الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر كذلك ، والإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل .

٥ ـ من أعان ظالماً سلّطه الله على هلكته .

٦ ـ أرسل الله الرسل لإقامة الحجة على الناس ، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم .

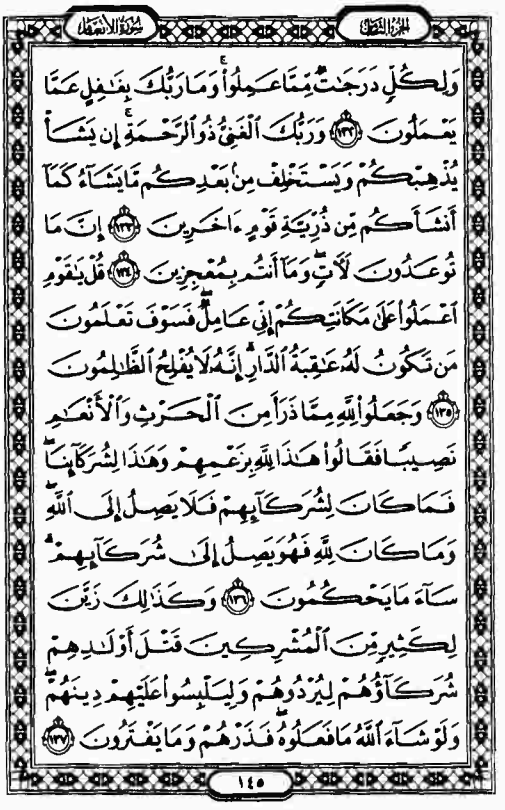
وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

معانى الكلمات :

يستخلف : يتخذهم خلفاء . **بمعجزين** : لا تستطيعون الهرب من عذاب الله .

مكانتكم : غاية تمكنكم واستطاعتكم .

ذرأ : خلق . **الحرث** : الزرع

الأنعام : الإبل والبقر والضأن والماعز .

فذرهم : اتركهم . **يفترون**: يختلقون كذباً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله غنىٌ عن العالمين ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

٢ ـ أن نفند تصورات الجاهلية الخاطئة ونحذر الوقوع فيها .

٣ ـ أن نحرر الولاء والطاعة لله فى التشريع والعادات والتقاليد .

٤ ـ أن نعرف حرمة الابتداع فى الدين وأثره السيئ على الإسلام والمسلمين .

المحتوى التربوى :

يُقرر المولى ـ عز وجل ـ حقيقة مهمة فى شأن الجزاء للمؤمنين وللشياطين سواء : فللمؤمنين درجات درجة فوق درجة ، وللشياطين درجات : درجة تحت درجة ! وفق الأعمال ، والأعمال مرصودة لا يغيب منها شىء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

على أن الله ـ سبحانه ـ إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ، فهو غَنُى عنهم ؛ وعن إيمانهم به وعبادتهم له ، وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم فى الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته فى الإبقاء على الجيل العاصى الظالم المشرك ،وهو القادر على أن يهلكه ، وينشئ جيلاً آخر يستخلفه .

يقول صاحب الظلال : فلا ينسى الناس أنهم باقون برحمة الله؛ وأن بقاءهم مُعلق بمشيئة الله؛ وأن ما فى أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطانا أصيلا ؛ ولا وجودًا مختارًا ، فما لأحد فى نشأته ووجوده من يد ؛ وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدره ، وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله ، كما أنه أنشأهم من ذرية جيل آخرين . واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .

وفى تأكيد لا يقبل الشك يقول المولى ـ عز وجل ـ مهدداً الكافرين : إنكم فى يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين ، ويوم الحشر الذى شاهدتم منه مشهداً منذ لحظة ينتظركم ؛ وإنه لآت لا ريب فيه ، ولن تفلتوا يومها ، ولن تعجزوا الله القوى المتين ؛ ويعقب هذا تهديد آخر ؛ تهديد الواثق من الحق الذى معه ؛ ومن القوة التى فى الحق ، والقوة التى وراء الحق ، والتهديد هذه المرة من الرسول ﷺ بأنه نافض يديه من أمرهم ؛ واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، واثق من مصيرهم الذى هم إليه منتهون : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

فهذه هى القاعدة التى لا تتخلف ، إنه لا يفلح الظالمون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء ، وليس من دون الله ولى ولا نصير ، والذين لا يتبعون هدى الله ، وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين .

وينتقل السياق ليصف تصورات الجاهلية وتقاليدها فى الحرث والأنعام ـ أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء ، ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه ـ سبحانه ـ جزءا ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا (وطبيعى أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهى إليهم هذا الجزء الأخير) ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذى جعلوه لله . على النحو الذى تقرره الآية .

وعن قتادة قال : عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءًا لله وجزءًا لشركائهم ، وكانوا إذا خالط شىء مما جزؤوا لله فيما جزؤوا لشركائهم خلوه ، فإذا خالط شىء مما جزأوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ، ردوه على شركائهم ، وكانوا إذا أصابتهم السنة (يعنى الجدب) استعانوا بما جزأوا لله وأقروا بما جزأوا لشركائهم . قال الله ، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف فى أموالهم ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق ـ أو خشية السبى والعار ـ ومن قتل بعض الأبناء فى النذر للآلهة كالذى روى عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية ، العرف الذى وضعه الناس للناس ، والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن ؛ من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والمولاة فيما بينهم .

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين ، وذلك ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك ، فيتمثل ابتداء فى قتلهم لأولادهم ، ويتمثل أخيرًا فى فساد الحياة الاجتماعية بحملتها ، وصيرورة الناس ما يشه شاة ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاؤوا وفق أهوائهم ومصالحهم ، حتى ليتحكمون فى أنفسهم وأولادهم

وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرًا من الخضوع ؛ لأن التصورات الملتبسة بالدين والعقيدة ـ وما هى منها ـ بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعى المنبثق منها ، وتنشئ ثقلًا ساحقا لا تقف له جماهير الناس ما لم تعتصم منه بدين واضح .

يقول صاحب الظلال : « وهذه التصورات المبهمة الغامضة ؛ وهذا العرف الاجتماعى الذى ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . لا ينحصر فى تلك الصور التى عرفتها الجاهلية القديمة. فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح فى الجاهليات الحديثة هذه العادات والتقاليد التى تكلف الناس العنت الشديد فى حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً . هذه الأزياء والمراسم التى تفرض نفسها على الناس فرضاً وتكلفهم أحياناً مالا يطيقون من النفقة ، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم ، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها ، أزياء الصباح ، وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء ، الأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف، إلى آخر هذا الاسترقاق المذل من الذى يصنعه، ومن الذى يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء . وتقف وراءه شركات الإنتاج ! ويقف وراءه المرابون فى بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التى ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات ، ويطلقونها تضغط على الناس فى صورة (عرف اجتماعى) فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفى ما لم تتمثل فى أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفى عرف غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين من الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

٢ ـ ما كلفنا الله ـ تعالى ـ به من العبادات والأعمال فيه الخير والسعادة لنا فى الدنيا والآخرة ، وفى طاعة الله ـ تعالى ـ الوصول إلى الكمال البشرى والخير العظيم .

٣ ـ وأد البنات من العادات الجاهلية التى زينها الشياطين للكافرين ، وقد أبطلها الإسلام وحذر منها ، ووضع البنات فى المكانة اللائقة بهن ، وأوصى بحسن تربيتهن ورعايتهن ، مما يؤكد عظمة هذا الدين وإنسانيته .

٤ ـ حرمة الابتداع فى الدين والتشريع المنافى لشرع الله ـ تعالى ـ وإن لم ينسب إلى الله ـ تعالى .

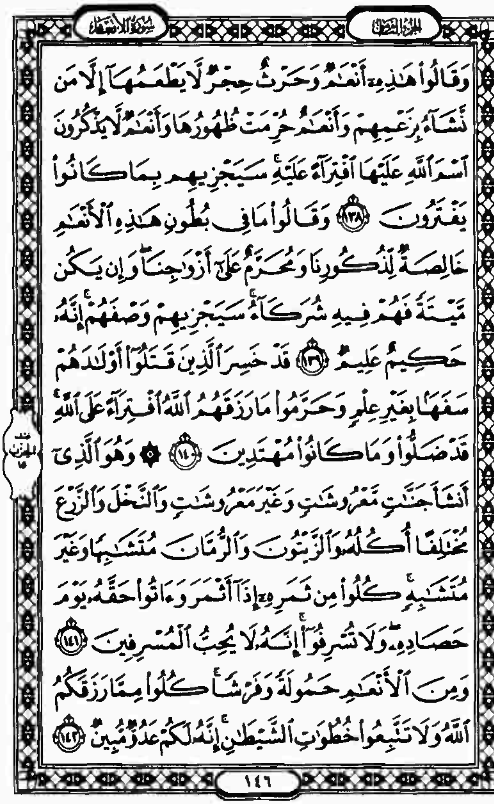
الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ
خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ
قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ
حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٤٦

معانى الكلمات :

حرث : زرع . **حجر** : محرمة محجورة .

حرمت ظهورها : وهى البحائر والسوائب والحوامى أى الدواب التى كان يحرمها أهل الجاهلية . **معروشات** : محتاجة للتعريش كالعنب . **فرشاً** : ما يفرش للذبح مثل الغنم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تفنيد قبائح المشركين وجرائمهم فى الأقوال والأفعال ، والرد عليها .

٢ ـ بيان ضلالة وخسران من يخالفون منهج الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن نشكر الله على ما امتن به علينا من رزق ونعم .

٤ ـ ألا نتبع خطوات الشيطان فهو لنا عدو مبين .

المحتوى التربوى :

ما زال السياق فى التنديد بأفعال العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم ، فأخبر ـ تعالى ـ عما كانوا يبتدعونه من البدع ويشرعون من الشرائع بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين ، وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة ضروب من تشريع الجاهلية وأباطيلهم :

الأول : تحريمهم بعض الأنعام والحرث وجعلها لله وللآلهة التى يعبدونها مع الله .

الثانى : أنعام أى إبل حرموا ركوبها كالسائبة والحام .

الثالث : إبل لا يذكرون اسم الله عليها ، فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها ، إن ركبوها بحال ولا إن حملوا عليها .

وقوله ـ تعالى ـ فى ختام الآية ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ أى كذباً على الله تعالى ؛ لأنه تعالى ما حرم ذلك عليهم وإنما حرموه هم بأنفسهم ، وقالوا : حرمه الله علينا ؛ ولذا توعدهم الله تعالى على كذبهم هذا بقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ، ولم يقفوا عند هذا الحد من الافتراء بل زعموا أن الله شرع وحرم ما فى بطون بعض الأنعام على الإناث ، وجعلوها حلالاً للذكور خالصة لهم دون النساء ، فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا ينتفعن بها

بحال ، اللهم إلا إن ولد الجنين ميتا ، فإنهم لا يحرمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معًا ؛ ولذا توعدهم بقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أى سيثيبهم على هذا الكذب بما يستحقون من العذاب إنه حكيم فى قضائه عليم بعباده .

وأخبر الله ـ عز وجل ـ بخسران أولئك المشرعين وضلالهم وعدم هدايتهم بقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : خسروا الخسارة المطلقة ، خسروا فى الدنيا والآخرة، خسروا أنفسهم وأولادهم ، خسروا عقولهم وأرواحهم ، خسروا الكرامة التى جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذى لا هداية فيه ﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾.

ويردهم الله إلى الحقيقة الأولية التى ضلوا عنها ، وهى أنه الخالق الرازق وهو الرب المالك ، الذى لا يجوز أن يُتصرف فى هذا المال إلا بإذنه ممثلاً فى شرعه ، وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعى الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

فالله ـ سبحانه ـ هو الذى خلق الجنات ابتداء ـ فهو الذى أخرج الحياة من الموت ـ وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ؛ ومنها البريات التى تنبت بذاتها ـ بقدر الله ـ وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم .

وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، متنوع الصنوف متشابهًا وغير متشابه ، وإنه سبحانه هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها « حمولة » عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة الأثقال وجعل منها « فرشاً » صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش .

إنه هو ـ سبحانه ـ الذى بث الحياة فى هذه الأرض ؛ ونوّعها هذا التنويع ؛ وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض ، فكيف يذهب الناس ـ فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق ـ إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

ويقول صاحب الظلال : « إن المنهج القرآنى يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية فى حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده؛ هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده بلا جدال .

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار ، ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله ، يحشد هذه المؤثرات فى صدر قضية الحكم لله ، كما حشدها من قبل فى صدد قضية الألوهية فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة فى العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزروع والثمار يقول : ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذى جعل الروايات تقول عن هذه الآية : إنها مدنية، ولكن هذه الآية مكية ؛ لأن السياق فى الجزء المكى من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية، فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت تأخرت حتى نزلت فى المدينة ، وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات فى الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة ، أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السُنة بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روى أنهم تباروا فى العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ويذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئاً . فما بالهم يتبعونه فى رزق الله ، ثم يذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين ، فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة التسمية عند الذبح ، وعدم ذكر اسم غير اسم الله ـ تعالى ـ عليها .

٢ ـ ما ينذره بعض الناس اليوم من نذور للأولياء وإعطاؤهم شيئاً من الأنعام والحرث هو من عمل المشركين زيّنة الشيطان لبعض الناس .

٣ ـ حرمة قتل النفس لأى سبب كان ، وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم كقتل البنات خشية العار ، وقتل الأولاد خشية الفقر .

٤ ـ نعم الله علينا كثيرة ، فيجب أن نشكره وأن نخرج زكاة أموالنا كل عام ، وزكاة زروعنا وثمارنا عند حصادها .

٥ ـ حرمة الإسراف فى المال بأن ننفقه فيما لا يعنى ، أو ينفقه كله ولا نترك منه شيئاً فإنما الصدقة عن فضل مال .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾
١٤٧

معانى الكلمات :

وصاكم الله بهذا : أمركم الله بهذا التحريم .

طاعم يطعمه : آكل ـ أيا كان ـ يأكله .

دمًا مسفوحًا : دمًا سائلاً مهراقًا .

رجس : قذر ، خبيث . **اضطر** : احتاج إلى أكله للضرورة . **غير باغ** : غير طالب للمحرم من أجل لذة **ولا عادٍ** : ولا زائد على قدر الضرورة .

ذى ظفر : ما له أصبع ـ دابة أو طيراً .

الحوايا : الأمعاء فيكون دهنها حلالاً .

ما اختلط بعظم : ألية الضأن ـ الليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان عاقبة الافتراء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير ما شرع .

٢ ـ أن نعرف حكم أكل المحرمات فى حالة الاضطرار .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من تحريم بعض الأطعمة دون الأخرى .

٤ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن المجرمين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يأخذ السياق فى مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية ، ليُلقى عليها الضوء ؛ ويستعرضها واحدًا واحدًا ، وجزئية جزئية ، فيكشف عن السخف الذى لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ، والذى قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له فى النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فهذه الأنعام التى يدور حولها الجدل ؛ والتى ذكرتها الآيات ، هى ثمانية أزواج ـ وكل من الذكر والأنثى يُطلق عليها لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه ـ زوج من الضأن وزوج من المعز، فأى منها حرمه الله على أى من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها فى البطون ؟

﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فهذه الشؤون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم ؛ وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى

من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هى التى حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ .

فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة مستيقن بهذا التحريم ، فما ينبغى أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستقين ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون . وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد .. وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذى شرع هذا الذى يشرعونه لذلك يعالجهم بالتحذير والتهديد : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن ، أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

وبعد أن كشف لهم عما فى معتقداتهم وتصوراتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التى يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم . بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذى خلقها لهم هو الله ، الذى يجب أن تكون له وحدة الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد .

يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذى إذا حرم الشىء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ، بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ، ولا تعقيب فى سلطان الحاكمية والتشريع ، وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

وهذا إعلان من الله ـ جل ثناؤه ـ للمشركين الذين جادلوا نبى الله وأصحابه فى تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذى جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذى حرمه الله ، وأن الذى زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة فى إضافتهم تحريمه إلى الله .

يقول أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : « إن معناه : فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم خنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ فى أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عادٍ فى أكله بتجاوزه ما حدَّه الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك ، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه ، فلا حرج عليه فى أكله من ذلك

﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيما فعل من ذلك ، فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه ولو شاء عاقبه عليه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه ، ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه » .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان ـ أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة، وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط ، وحرم كذلك شحم البقر والغنم ـ إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم ، وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه .

والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذى حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه ، لقد كان هذا مباحاً حلالاً ليعقوب ، ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا . فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

فقل : ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمناً من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته ـ سبحانه ـ تسع المحسن والمسىء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلماً منه ورحمة فإن بعضهم قد يتوب إلى الله ، ولكن بأسه شديد لا يرد عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم من أجل مرسوم،وهذا القول فيه من الإطماع فى الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس، والله الذى خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ، لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أهل الشرك والكفر ـ دائماً ـ يجادلون بالباطل ، ويفترون على الله الكذب .

٢ ـ حرم الله ـ تعالى ـ الشرك بجميع أنواعه ؛ فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة ولا نشرك به أحداً .

٣ ـ ليس هناك أظلم ممن يفترى على الله الكذب فيحل ما حرمّ الله ويحرم ما أحل الله .

٤ ـ حرم الله ـ تعالى ـ على عباده من الأطعمة ما يضر بصحتهم ، وما يكون خبيثاً لا تستطيبه النفوس المستقيمة مثل الميتة والدم المسفوح والخنزير والكلب .

٥ ـ لا حرج على المضطر إذا أكل من المحرمات بقدر الضرورة إذا خشى على نفسه الهلاك .

٦ ـ عاقب الله اليهود فحرم عليهم بعض الأطعمة ؛ لأنهم بغوا وخالفوا أوامر الله .

٧ ـ إمهال الله ـ تعالى ـ المجرمين لا يدل على عدم عقوبتهم فإن بأس الله لا يُرد عن القوم المجرمين .

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ
مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ
الحزب ١٥ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ
تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ
إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

١٤٨

معانى الكلمات :

لا يرد بأسه : لا يدفع عذابه ونقمته .

تخرصون : تكذبون على الله ـ تعالى .

الحجة البالغة : بإرسال الرسل وإنزال الكتب . **هلم شهداءكم** : أحضروا .

اتل : اقرأ . **إملاق** : فقر . **الفواحش** : الذنوب القبيحة . **ما بطن** : ما خفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين .

٢ ـ أن نقف عند حدود وصية النبى ﷺ فى الآيات ونلتزم بها .

٣ ـ أن نعلم أن تشريعات الإسلام جاءت لحماية المجتمع وسعادة الإنسان فى الدارين .

٤ ـ أن نعلم أن كمال العقل باجتناب المحرمات الخمسة الواردة فى الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد أن واصل السياق تضييق الخناق على هؤلاء المجرمين الذين يفترون على الله الكذب ويحلون ما حرّم الله ويحرمون ما أحل الله ، وبعد ما سدّ الذرائع فى وجوههم ، يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم ، إنهم يقولون : إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال ، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التى لا يعجزها شىء .

لقد واجه القرآن هذا الادعاء بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد ، ويصحح لهم منهج الفكر والنظر ، فالله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقناً ، فأما مشيئة الله فهى غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينًا فكيف يحيلون عليه : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إن الله أوامر ونواهى معلومة علمًا قطعيًا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ؛ ليمضوا وراء الحدس والخرص فى واد لا يعلمونه ؟

لقد جاء هذا الدين ليحقق واقعًا عمليًا ، تحدده أوامر ونواه حقيقية ، فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول فى متاهة ، يرتادها العقل بلا دليل ، ومضيعة للجهد الذى ينبغى أن ينفق فى العمل الإيجابى الواقعى المشهود .

هذا هو فصل القول فى هذه القضية ، إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ؛ ليكيفوا أنفسهم على حسبها ، وهم حين يحاولون هذا يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . وهذا حسبهم فى القضية التى تبدو عندئذ ـ فى واقعها العملى ـ يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بنى آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى ، أو يقذف بالهدى فى قلوبهم فيهتدوا بلا قهر ، ولكنه ـ سبحانه ـ شاء غير هذا ! شاء أن يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ؛ ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال فى غيه وفى عمايته ، وجرت سنته بما شاء .

وأخيراً يوجه الله ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ إلى مواجهة المشركين فى موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل فى موقف الإشهاد على قضية الألوهية فى أوائل السورة . حيث قال له : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ الآية وهنا قال له : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ﴾ الآية .

ويصم الله الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون أى يجعلون له أنداداً تعدله . وحكم عليهم ـ سبحانه ـ بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فالذى يؤمن بالآخرة ، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة ، لا يمكن أن يعتدى على ألوهية الله ، ويدعى لنفسه حقه الذى يتفرد به ، وهو حق الحاكمية المطلقة فى حياة البشر . ممثلة هذه الحاكمية فى قضائه وقدره ، وفى شريعته وحكمه .

وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات ، يلقى إليهم بالمقررات الإلهية التى تتضمن ما حرمه الله حقاً ، وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التى لها مقابل محرم ، وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول ، وهو الشرك بالله ؛ لأن هذه هى القاعدة الأولى التى يجب أن تتقرر ؛ لتقوم عليها المحرمات والنواهى ، لمن استسلم لها وأسلم .

وبالنظر فى هذه الوصايا التى ترد فى هذا السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها ـ فإذا هى قوام الدين كله ، إنها قوام حياة الضمير

بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسان وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطه بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله .

يقول صاحب الظلال :« قل تعالوا أقض عليكم ما حرمه عليكم ربكم ـ لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم ـ ! لقد حرمه عليكم « ربكم» الذى له وحده حق الربوبية ـ وهى القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية ـ وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذى يحرم هو« الرب » والله هو وحده الذى يجب أن يكون ربا » .

إن الله قبل أن يوصى الناس أى وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا ، فى موضع من السياق القرآنى يحدد المعنى بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه جميع الوصايا ! إنها القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط ، فلا تظل مهباً لريح الشهوات والنزوات .

ثم يوصى بتدعيم رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة فأوصى الأبناء بالآباء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة وقال لهم : إنه هو الذى يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كِبَرهما ، ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعًا .

ووصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها المجتمع كله ، وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها ؛ فإنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة ، وليقوم المجتمع والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

وينهى عن قتل النفس المفردة ، كما سبق ونهى عن قتل الجماعة بالزنا ، ومن قبلها قتل الفطرة بالشرك ، والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات ، مجتمع مهدد بالدمار ، ومن ثم جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم أقصى العقوبات ؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرم الله ـ تعالى ـ الشرك بجميع أنواعه ، فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة .

٢ ـ ضرورة الإحسان إلى الوالدين وحسن معاملتهما وطاعتهما فى غير معصية لله ـ تعالى ـ وتحريم قتل الأولاد بسبب الفقر وغيره تكريماً لإنسانية الإنسان .

٣ ـ تحريم قبائح الذنوب وكبائر المعاصى التى لا يفعلها عاقل سواء منها الظاهر أو الخفى .

٤ ـ تحريم قتل النفس والعدوان على نفوس الآخرين .

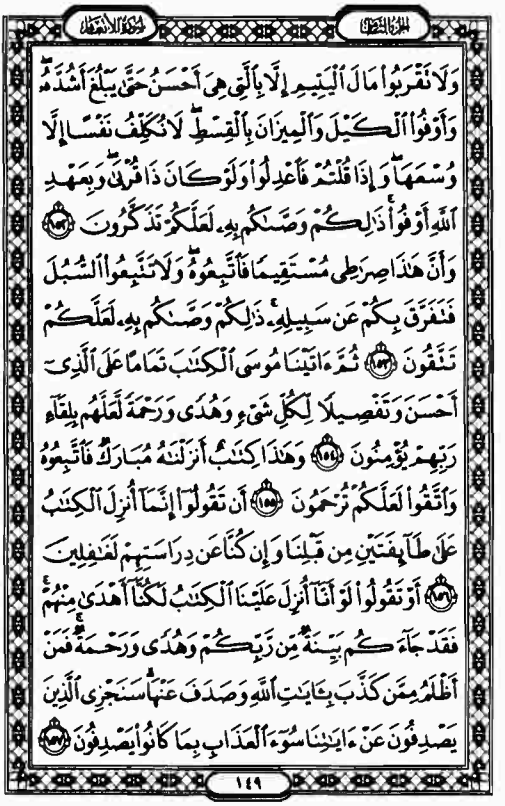
وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ
ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾
١٤٩

معانى الكلمات :

حتى يبلغ أشده : حتى يكبر ويصبح قادراً على التصرف السليم . **بالقسط** : بالعدل . **إلا وسعها** : إلا ما تستطيعه بلا مشقة مُعجزة .**صراطى**: طريقى . **السبل**:الطرق.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتجنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٢ ـ أن ندفع مال اليتيم إليه إذا بلغ أشده .

٣ ـ أن نؤدى الحقوق إلى أهلها دون انتقاص منها .

٤ ـ أن نفى بالعهود مع الله ، ومع الناس ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

المحتوى التربوى :

قبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى سبقه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وأردف بأدب جم من آداب هذا الدين وهو رعاية اليتيم وكفالته ؛ فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم ، فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده ـ أى اشتداد قوته الجسمية والعقلية ؛ ليحمى ماله ، ويُحسن القيام عليه وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوًا نافعًا ؛ وسلمته حقه كاملاً .

ولأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة ربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء ؛ وبين العقيدة للدلالة على طبيعة هذا الدين وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وتسويته بين العقيدة والشريعة بين العبادة والمعاملة فجاء قوله ـ تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

ويرتفع الإسلام بالضمير البشرى ـ وقد ربطه بالله ابتداء ـ إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته،ويأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبه الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ،

وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو ـ سبحانه ـ أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، لذا يُعقب على هذا الأمر ـ وعلى الوصايا السابقة ـ مذكراً بعهد الله : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ .

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى ، ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط إلا بالحق . وقبل ذلك كله من عهد الله أى يشركوا به شيئاً ، فهذا هو العهد الأكبر المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يجىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف بالوصاة العشر ليكون الذكر ، والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

يقول صاحب الظلال : « هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية ، وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، ... هذه هى صراط الله المستقيم » .

وبعد فهذه هى صراط الله المستقيم ، صراط الله الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن سبيله ، وتلك وصية الله لعباده بُغية التقوى ، فالتقوى هى مناط الاعتقاد والعمل ، والتقوى هى التى تفىء بالقلوب إلى السبيل .

وصراط الله المستقيم ممتد عبر الرسالات ، ومنه أقرب شريعة للإسلام ، شريعة موسى عليه السلام ؛ وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شىء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله فى الآخرة . وتربط الآيات الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذى أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها،رجاء أن ينال الناس ـ حين يتبعونها ـ رحمة الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب ، كى لا يقولوا : إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذى تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم ، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم .

يقول صاحب الظلال : « لقد شاء الله ـ سبحانه ـ أن يرسل إلى قومهم بلسانهم حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين ، والله يقطع الحجة على العرب أن يقولوا : إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما ، ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام ، ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب ، فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم ـ وإن كان رسولاً للناس أجمعين ـ وجاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم ، يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما فيه من ضلال ، ورحمة لهم فى الدنيا والآخرة » .

فإذا كان ذلك فمن أشد ظلما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهى تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟فمن أشد ظلما لنفسه وللناس بصده لنفسه، وللناس عن هذا الخير العظيم، وبإفساده فى الأرض بتصورات الجاهلية وتشرعاتها .. إن الذين يعرضون عن هذا الحق فى طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالآفة التى تكون فى خف البعير فتجعله يصدف أن يميل بجسمه ولا يستقيم .. وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم .

ويقول صاحب الأساس ، فى التشابه بين القرآن والتوراة : «قال كعب الأحبار» : إن هذه الآيات لأول شىء فى التوراة » أى : هذه الوصايا العشر مذكورة فى أوائل التوراة ، وقد تتبعت ما يسمّونه الآن بالتوراة فوجدت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهو السفر الثانى من أسفار التوراة : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ... » وهذا وما بعده يقابل ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ « أكرم أباك وأمك ... » وهذا يقابل : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ « لا تقتل » وهذا يقابل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم ﴾ . (ولا تقتلوا النفس ....) . « لا تَزْنِ » وهذا يقابل : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ « لا تسرق » وهذا يقابل : ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ . « لا تشهد على قريبك شهادة زور » وهذا يقابل : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ وفى الإصحاح الخامس من سفر التثنية هذه الفقرات :

« لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ،لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما ،فما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن ؛ لأنى أنا الرب إلهك إله غيور .. .. » . « لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرّئ من نطق باسمه باطلاً ... » . « أكرم أباك وأمك أوصاك الرب إلهك » « لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور ولا تشته امرأة قريبك » .

ولو أننا نظرنا إلى هذه الوصايا فى التوراة ، لوجدناها تقابل بشكل ما الوصايا العشر فى القرآن ، مع الاختلاف فى محتوى بعض الألفاظ مما خالفت فيه شريعتنا شريعتهم بأمر الله ونسختها ؟ وهذا دليل على تواصل الرسالات وانتظامها سبيلاً وطريقاً مستقيمًا واحدًا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

٢ ـ وجوب رعاية مال اليتيم والمحافظة عليه حتى يبلغ أشده .

٣ ـ وجوب أداء الحقوق إلى أهلها من غير نقص فى كيل أو ميزان أو غيرهما .

٤ ـ وجوب الوفاء بالعهد مع الله ومع الناس والتحذير من نقض العهود ومخالفة الوعود .

٥ ـ دين الله واحد ، فقد دعا الأنبياء جميعًا إلى توحيد الله وفعل الخيرات والبعد عن الشر .

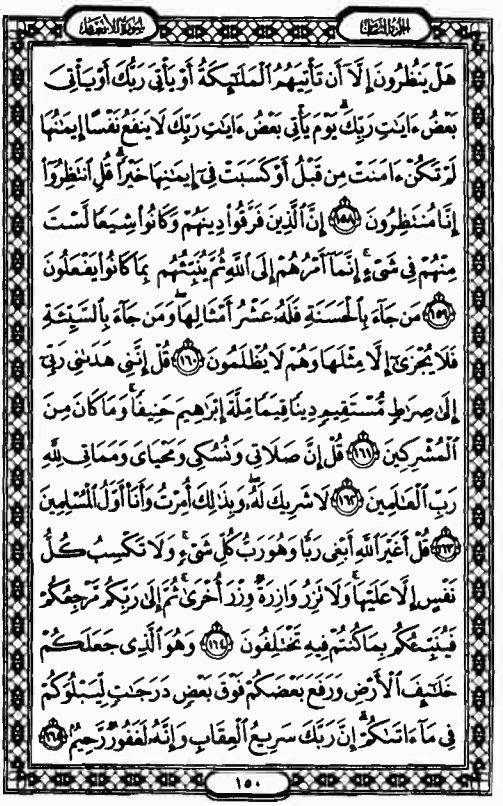
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا
لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ
﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ
خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ
فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾
١٥٠

معانى الكلمات :

يأتى ربك : إيتاء يليق بجلاله ـ تعالى .

شيعاً : فرقاً وأحزاباً فى الضلالة . **قيماً** : يقوم به أمر الناس . **نسكى** : عبادتى .

لا تزر وازرة : لا تحمل نفس آثمة .

وزر: الحمل الثقيل (الذنب) . **أبغى**:أريد ، وأقصد . **يبلوكم** : يختبركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم أن الفرقة فى الدين مآلها الكفر والخسران المبين .

٢ ـ أن يستشعر المؤمن اتصاله بركب الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد خاتم الأنبياء .

٣ ـ أن يتوجه المسلم بكل ما فى حياته وما يسعى إليه فى مماته لله رب العالمين .

٤ ـ أن يدرك المؤمن قاعدة الحساب والجزاء فى الإسلام .

المحتوى التربوى :

بعد انقطاع المحجة بنزول القرآن ، لا يزال العرب يشركون ، ويشرعون من عند أنفسهم ، ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذى يفترونه ، وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه ، ولو جاءتهم الآيات التى يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ الآية إنه التهديد الواضح الحاسم ، فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتما إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون . والله ـ سبحانه ـ يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقُضى عليهم بعده وإنه يوم تأتى بعض آيات الله تكون الخاتمة التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً فى إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته فى ميزان الإسلام . بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة فى الأرض ـ بما فيها ملة المشركين العرب .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله ـ تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل ، سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعاً وفرقاً وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً ومعسكرات ودولاً .

إن الدين عند الله الإسلام ، ورسول الله ﷺ ليس فى شىء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام ، وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع ، ورسول الله ﷺ ليس فى شىء ممن يتخذون غير منهج الله منهجًا ، وغير شريعة الله شرعًا . وفى ختام السورة ـ وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية ـ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فى ظلاله : تجىء التسبيحة الندية الرخية ، فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الآيات » ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد ، توحيد الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته .

وفى الآيات الإعلان الذى يوحى بالشكر ، ويشى بالثقة ، ويفيض باليقين ، والثقة بالصلة الهادية ، صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية ، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى لا التواء فيه ولا عوج : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ، وهو دين الله القديم منذ إبراهيم أبى هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب : ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وكذلك فى الآيات التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه ، وتمضى التسبيحة الندية بحلاوتها فى آفاق الكون تنقضى السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن فى السر والعلانية ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن فى هذا الكون الهائل ؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة بقوله ـ تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الآيات .

ونتساءل مع صاحب الظلال :

ـ أغير الله أبغى ربا يحكمنى ويصرف أمرى ويهيمن على ويقومنى ويوجهنى ؟ وأنا مأخوذ بنيتى وعملى محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهذا الكون كله فى قبضته ؛ وأنا وأنتم فى ربوبيته ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وكل فرد مجزى بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

ـ أغير الله أبغى ربا وإليه مرجعكم فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهو الذى استخلف الناس فى الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى العقل والجسم والرزق ، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، فأجعل شرعه شرعاً ، وأمره أمراً ، وحكمه حكماً .

وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟

وكما يقول صاحب الظلال : إنها تسبيحة التوحيد الرضية الندية ؛ تتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هى فى قلب رسول الله ﷺ ـ وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآنى الفريد .

وهكذا حشدت هذه الصورة حشوداً عن حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها، وحقيقة الكون والحياة ، وحقيقة النفس الإنسانية بأغوارها وأعماقها ، ومشاهد القيامة ومواقف الحشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار ، ولقطات من تاريخ الإنسان فى الأرض ، ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإسلام رسالة الاستقامة والهدى للبشرية جمعاء ، وهو دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ يجب أن نقصد الله بكل أقوالنا وأفعالنا ، وكل ما نعمله فنحيا عليه ، وما نسعى إليه فنموت عليه فيكون كله لله رب العالمين .

٣ ـ يجب أن نعتقد بأن الله ـ تعالى ـ وحده هو النافع الضار وهو القادر على كل شىء .

٤ ـ كل إنسان مسؤول عن نفسه ،وسيجازى بما عمل ،ولن تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

٥ ـ امتحن الله الناس بالغنى والفقر ، والخير والشر ، والسعيد من نجح فى امتحان الدنيا بالإيمان الصادق والعمل الصالح .